المسيحيون العرب وقضايا الأمة
متغيرات السياق والأدوار

القس د. متري الراهب

طبعة أولى

المسيحيون العرب وقضايا الأمة
متغيرات السياق والأدوار

إعداد : القس د . متري الراهب

صدر عن :ديار للنشر، بيت لحم ،فلسطين ٢٠١٣

الترقيم الدولي : ٥ – ١٧– ٣٧٦– ٩٩٥٠– ٩٧٨

المطبعة :البطريركية اللاتينية – بيت جالا
الإخراج الفني والجمع : ديار للنشر
تصميم :إنجريد أنور الخوري

جميع حقوق الطبع أو إعادة النشر محفوظة لديار للنشر ٢٠١٣

١. المسيحيون العرب ٢. اللاهوت المسيحي – الشرق الأوسط ٣. الإسلام ٤. القرآن
٥. الكتاب المقدس ٦. المشاركة السياسية – العالم العربي

w w w . d i y a r . p s

الفهرس

– مقدمة الناشـر ٥

– الحالة السياسـية والكنسية في شبه الجزيرة العربية..... ٩

– الكنيسة في الشرق والسلطة السياسية القائمة
انطلاقاً من خبرتها التاريخية ٢٣

– الفكر اللاهوتي في السياق الفلسطيني ٢٩

– محمود درويش والكتاب المقدس..... ٤٣

– الكتاب المقـدس في لاهوت القس نعيم عتيق..... ٥٧

– مفهوم العدل والسـلام في اللاهوت المسـيحي الحديث ٦٣

– حقوق الإنسان في المسيحية ٧٣

– القدس في الخطاب المسـيحي ٧٩

– هجرة المسيحيين من فلسطين أسـباب ومسببات ١٠١

– ثورات العالم العربي والمسـيحيون متغيرات السياق والأدوار ١٠٩

– فهرس الهوامش ١٢١

مقدمة الناشر

يتشكل هذا الكتاب من مجموعة أوراق ومقالات قدمها المؤلف في مؤتمرات محلية وعربية في الربع الأخير من القرن الماضي. وقد تم نشر جزءاً منها في حينه في منشورات مركز اللقاء ما بين ١٩٨٩ وحتى سنة ٢٠١٣.

وتعالج هذه المقالات مجموعة من القضايا المصيرية التي تهم المسيحيين العرب عامة والمسيحيين الفلسطينيين على وجه الخصوص. بدءاً بالحالة السياسية والكنسية في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، مروراً بعلاقة كنائس الشرق بالإمبراطوريات المتعاقبة وانتهاءً بثورات ما يسمى بالربيع العربي. كما ويسلط الكتاب الضوء على الفكر اللاهوتي المسيحي في السياق الفلسطيني، بما يختص بحقوق الإنسان ومفاهيم العدل والسلام والقدس.

ويتميز هذا الكتاب ببحثه عن الكتاب المقدس في كتابات الشاعر الفلسطيني محمود درويش.

ويصدر هذا الكتاب متزامناً مع احتفال المؤلف باليوبيل الفضي لرسامته قسيساً في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في بيت لحم. حيث يسر ديار للنشر أن تقدم للقارئ العربي هذه الباقة من أوراق المؤلف ومقالاته للإطلاع على فكره ولاهوته.

ولا يسعنا في هذا المجال إلا أن نتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم في إنجاح هذا العمل، وقدّم الدعم الفني واللوجستي وأخص بالذكر مركز اللقاء الذي سمح لنا بإعادة نشر أربعة مقالات للمؤلف، بالإضافة إلى السيدة هبة ناصر الأطرش التي أشرفت على طباعته والأستاذ سلامة رزق الله الذي قام بتنقيح اللغة العربية والآنسة إنجرد خوري التي قامت بتصميم الكتاب كي يأخذ شكله الفني والتقني الذي يليق به.

ديار للنشر

أيار ٢٠١٣

الحالة السياسية والكنسية في شبه الجزيرة العربية

في القرن السادس إلى السابع الميلادي

كانت شبه الجزيرة العربية وطن النبي محمد -حتى الربع الأول من القرن السابع- تقع في زاوية هادئة نائية من العالم[1]. وكانت الأحداث التاريخية تبدو بعيدة عن هذه المنطقة، مما لم يُتَح للعرب ولا في أي حال من الأحوال أن يلعبوا دوراً ريادياً فيها، وبدوا حينذاك وكأنه حكم عليهم أن يقفوا متفرجين حياديين في مسرح الأحداث. وكان ذلك لاعتبارات عدة منها: أن كلمة الفصل لم تتقرر بعد، لاعتبارات عديدة. كان القرن السادس هو زمن الاضطراب الذي يسبق الهيجان، وكان كل شيء في طريقه نحو التطور، وكان انتقال القرن السادس إلى السابع فترة مفاجآت وتحول لاعتبارات عديدة. وعلى ضوء هذه الاعتبارات والخلفيات يقتضي الأمر النظر في نشأة القرآن وفهمها.

١. الخلفية السياسية

في منعطف القرن السادس إلى السابع كانت شبه الجزيرة العربية شبه فراغ من الأحداث الساخنة وبعيدة عن القوتين العظميين آنذاك، وهما الدولة البيزنطية في الشمال الغربي والدولة الفارسية الحديثة النشوء في الشمال الشرقي. وكانت الدولة البيزنطية تحتل شمال إفريقيا والنواحي الأخرى حول النيل، وشبه جزيرة سيناء وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبعض الأجزاء الأوروبية. أما الدولة الفارسية الحديثة فكانت تسيطر على المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والخليج الفارسي، ومن نهر دجلة غرباً حتى نهري أوكسس وإندوس شرقاً، وكانت عاصمتها سلوقية - قتسيفون (طسيفون قديماً). والتقت حدود الدولتين في بلاد ما بين النهرين شمال الجزيرة العربية، مما اضطر كل من الدولتين أن تخلق لها منطقة عازلة أو حزاماً فاصلاً. وكانت تنزل في هاتين المنطقتين العازلتين قبيلتان عربيتان كانت كل واحدة منهما تابعة لإحدى هاتين الدولتين. فالغساسنة[2] كانوا غرباً أي في الجزء الخاضع لبيزنطة، واللخميون[3] شرقاً ضمن النطاق الفارسي. وبالطبع لم تكن القوتان العظميان لتسندا إلى القبائل العربية قسطاً من المسؤوليات إلا بعضاً من الأدوار الجانبية فقط. فكانت تجندها في حالة هجوم الجيوش المعادية وكان عليها أيضاً صد الغزوات التي كانت تشنها القبائل البدوية وكذلك حراسة الطرق التجارية. وكانت كل من الدولتين الكبيرتين تسعى إلى توسيع نطاق نفوذهما في الجزيرة العربية مما كان له تأثير على حياة محمد منذ ولادته وزمن حياته وحتى وفاته. واتفق أنه في العام ذاته الذي ولد فيه النبي حاول ابرهة [4]

اجتياح الجزيرة العربية من الجنوب، وكان أبرهة هذا حبشياً وأميراً على اليمن، وكان خاضعا للدولة الإثيوبية. وكان الاثيوبيون بطبيعة الحال الجغرافي موالين للبيزنطيين الذين كانوا يهدفون من وراء هذا الهجوم أن يقيموا سداً في وجه النفوذ الفارسي في الجزيرة العربية. ومما تناقلته الروايات عن أبرهه أنه كان يقود فيلاً في طليعة الجيش، ولذلك دعيت تلك السنة «بسنة الفيل» وقد وصلت الحملة أبواب مكة ولكنها فشلت بسبب تفشي الوباء، ولم يلبث أبرهه حتى مات هو أيضاً بعد وقت قصير. وبهذا انتهى حلم البيزنطيين بالسيطرة على الجزيرة العربية سيطرة غير مباشرة.

أما الفرس فقد كانوا أوفر حظاً في النجاح. ففي عام ٥٧٢ حملوا من الشمال الشرقي على الجانب الغربي للخليج الفارسي وعلى أجزاء من جنوب الجزيرة العربية وطردوا منها الأثيوبيين فباتت سيطرتهم على تلك البلاد سيطرة مباشرة. والحدث الثاني ذو الأهمية السياسية في الشرق جرى عام ٦١٠ [٥] وهو عام دعوة النبي محمد، لأنه بعد أن اغتصب فوكاس (وهو بيزنطي) الملك وقتل الإمبراطور موريقيوس (عام ٦٠٢) جرّد الملك الفارسي «خسرو الثاني» حملة على الدولة البيزنطية ونجح خلال خمس سنوات في احتلال شرقي آسيا الصغرى والوصول حتى خلقدونيا. وجاءت الجيوش الفارسية من الشمال بقيادة الجنرال شاهين واجتاحت سوريا وفلسطين عام ٦١١ واحتلت القدس عام ٦١٤. وتمكنت من الوصول عام ٦١٩ إلى مصر وانتزعت هذه البلاد أيضاً من البيزنطيين. وراح ضحية هذه الحملة ٧٠٠٠ كنيسة ودير دمرها الفرس، واستولوا كذلك على عود الصليب المقدس في القدس واخذوه معهم. وفي هذه الأثناء طرأت تطورات جذرية على الحال في القسطنطينية. فقد جاء هراكليوس (هرقل) بجيشه ودخل المدينة يوم ٣ تشرين الثاني عام ٦١٠ وعزل فوكاس واعتلى عرش الإمبراطورية. وفي عام ٦٢١ حمل حملة مضادة على الفرس واسترد منهم مصر وفلسطين وسوريا. وتمكّن من القضاء على جيش الفرس بمساعدة الأرمن الكرجيين والخزريين في المعركة قرب نينوى وهدم عاصمتهم سلوقية قتسيفون، واستطاع بعد سنتين من ذلك الحدث أن يسترد ذخيرة الصليب المقدس إلى القدس في موكب انتصار مجيد. ولكن فرحة البيزنطيين بهذا النصر لم تدم طويلاً، لأن الدولتين الكبريين اللتين أنهكتا طاقتيهما في حروبهما مع بعضهما البعض، مكنتا دولة عظمى جديدة من الظهور في الجزيرة العربية وكانت في بداية نشوئها.

وكان هذا الحدث مفاجئاً للدولتين الكبريين واضطرهما الأمر الى إفساح المكان ليتسع لدولة عظمى ثالثة. لم يعد موقف العرب من التاريخ موقف المتفرج بل أخذوا يلعبون فيه دوراً رئيسياً. وكان الجيش الإسلامي عام ٦٣٠ قد أخضع شبه الجزيرة العربية بقيادة النبي محمد، لكنه لم يكتب له أن يعيش ليشهد بنفسه استيلاء أتباعه على فلسطين وبلاد ما بين النهرين خلال الست سنوات التي تلت وفاته.

لم تكن الخلفية السياسية للدولتين الكبريين ولا الدور الذي تيسّر للعرب في مستهل القرن السابع أمرين خافيين على النبي محمد، فلدينا دلائل قرآنية تشير إلى موقفه إزاء الأحداث الجارية، ومنها: إحدى السور التي رافقت الحقبة المكية الأولى والتي تسلط الضوء على بعض هذه الأحداث السياسية، إنها سورة ١٠٥ والتي سميت أيضا باسم

«سورة الفيل» وتتناول نبأ زحف أبرهة الأشرم إلى مكة، والتي تعزي سبب انهزامه إلى العناية الإلهية لأن مصير تلك المدينة العربية مسقط رأس النبي وموضع إقامته ليست غائبة عن بال الله، فهو الذي يحارب عنها.

كما يدعو إلى الانتباه إلى أن دعوة النبي جاءت في عصر اضطرابات وتحركات سياسية كبيرة، كما كانت الحال أيضاً زمن دعوة الكثيرين في العهد القديم. وكان محمد وقت دعوته يمارس مهنة التجارة، فلم يكن مروره - أحياناً - في مناطق نفوذ الدولتين أثناء «رحلات عمله» أمراً بعيد الاحتمال. حتى وإن لم يكن الأمر صحيحاً فإنه من المستحيل أن يعيش المرء آنذاك في مكة وهي المدينة الواقعة على أهم الطرق التجارية دون التأثر بالتحركات السياسية. أما كونها قد بقيت مصونة من هذه الاضطرابات، وظلت تجارتها ذات شأن وازدهار [٦]، فذلك يشير الى تدخل العناية الإلهية، لأن الله هو الذي «أطعمهم (أي قريش) من جوع وأمنهم من خوف» (سورة قريش وأيضاً سورة الانشراح): «ووضعنا عنك وزرك».

كانت الاضطرابات التي حدثت حوالي عام ٦١٠ ذات تأثير ثوري وباعثه على تغييرات جذرية. وليس من قبيل الصدفة أن فكرة قرب انتهاء العالم والدينونة كانت تلعب دوراً هاماً في السور الأولى. وحسب رأي العالم Noeldeke[٧] هناك ٤٨ سورة يرجع عهدها إلى الحقبة المكية الأولى منها حوالي عشرين سورة تحوي إشارات مباشرة وثلاث عشرة سورة إشارات غير مباشرة إلى الأمور الأخيرة ونهاية العالم. وما كانت الأحداث التي دارت في شمال الجزيرة العربية إلا لتوحي بأن العالم يوشك أن يهلك. وشهد على ذلك أسماء بعض هذه السور مثل:

سورة الليل رقم ٩٢
سورة القارعة رقم ١٠١
سورة الزلزلة رقم ٩٩
سورة الانفطار رقم ٨٢
سورة التكوير رقم ٨١ (المقصود بها الشمس والنجوم)
سورة الانشقاق رقم ٨٤
سورة القيامة رقم ٧٥
سورة الحاقة رقم ٦٩
سورة الواقعة رقم ٥٦

كان محمد واثقاً من رسالته إزاء هذه الشدائد الفاجعة المزمع إتيانها واستطاع أن يهز مشاعر الناس لمواجهتها قبل فوات الأوان، وقد توجه أولاً إلى أهل مدينته وعشيرته. وكان في إعلانه عن الدينونة يتمثل بصور عالقة بذهنه وعلى الخصوص صور مسيحية. لأن هذا الموضوع من سمات الكنيسة النسطورية المميزة.[٨] وهناك مجال للاعتقاد بأن عظات الدينونة كانت تسمع أيضا في الجزيرة العربية[٩] لكننا لا نملك عظة واحدة وجهت لأهل مكة على نحو مباشر أو باليقين. إنما محمد وحده كان واثقاً من أنه رسول هذه المدينة وليس سواها. ولم يأخذ في نشر دعوته خارج حدود مكة إلا في وقت لاحق.

لم يُشر محمد إلى الخلافات بين بيزنطة وفارس والتي أوقدت نار الحروب بينهما إلا إشارة واحدة وهي السورة ٣٠ التي يعزوها Noeldeke الى الحقبة المكية الثالثة واسم السورة «الروم». وكتبت على الأغلب بعد سقوط فلسطين عام ٦١٤[١]. وتقول الآيات ٢-٤: «غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» (أي عندما يفوز البيزنطيون بالنصر). يلاحظ في هذه الآيات أن النبي ينحاز إلى البيزنطيين ويقف ضد الفرس ويتوقع أن يعود الأولون ويغلبون. الأمر الذي تم بالفعل فيما بعد. وفي هذا الوقت بالذات الذي يعد الحقبة المكية الثانية كان موقف محمد إلى جانب البيزنطيين موقفاً جلياً لا لبس فيه. لأن انتصار البيزنطيين كان لا يزال انتصار المؤمنين آنذاك.

٢. الخلفية الكنسيّة

كما لاقت الحالة السياسية في منعطف القرن السادس إلى السابع اضطرابات وتحركات كبيرة كتلك الحالة التي لاقتها الكنسية أيضا. واعتاد الكثير من الباحين ممن نقلوا أخبار المسيحيين زمن محمد أن يظهروا العقائد المسيحية والثقافة الكنسية وطقوسها وأعمال التقوى وكأنها قد تمت صياغتها بشكل نهائي. وفي الواقع لم تكن الحال هكذا. لأن الكثير مما له علاقة بالكنيسة كان في حالة تطور بعد . وكان الكثير من الأمور لم توضح والكثير لم يفصل فيه بعد. وفيما يلي شرح موجز لأهم خواص الجماعات المسيحية المتدينة

• مفهوم "الديانة القومية"

من أهم الميزات التي تميزت بها ديانات الهلال الخصيب هي الميزة «القومية». التي لاقت إهمالاً لهذه الحقيقة وهذا الإهمال ليس بقليل. فلا مناص لنا من وضعها نصب أعيننا إذا أردنا فهم القرآن فهما صحيحاً. ويعني مفهوم الديانات القومية أن الحضارة القومية ولغتها وهويتها وانتماءها الديني تكون وحدة واحدة لا تتجزأ في هذه الديانات. وقد كانت القومية والدين متشابكين تشابكا تاما لكن لم تكن القومية بمفهومها العصري الذي نشأ في القرنين و١٨-١٩. وينطبق هذا الأمر على الديانات الثلاث التي تعرف عليها محمد. فالزرداشتيه (نسبة الى زورواست) كانت ديانة الدولة الفارسية ومرتبطة بالقومية الإيرانية واللغة الفارسية ارتباطا وثيقاً. كما ينطبق هذا أيضاً على اليهودية حتى لو لم يكن لها إقليم خاص بها في زمن محمد. لكنها كانت بلا شك ديانة قومية لأن الشعب والديانة كانا متشابكين تشابكاً قوياً. كما كانت حتى طقوس اليهود الدينية في بلاد العرب باللغة العبرية. إن المتناقل عن الديانة اليهودية أنها نجحت في أن تصبح ديانة قومية ذات إقليم خاص بها في جنوب غرب العربية وهذا مرده إلى اعتناق (دمونواس) ملك حمير الديانة اليهوبية بين عامي٥٢٢-٥٢٥م. ومن المحتمل أن المسيحية كانت على خلاف ذلك لأنها كانت منذ البداية تلتزم الاتجاه التبشيري ولم تكن لترتبط بأية لغة من اللغات وأي شعب من الشعوب ارتباطا خاصا. وذلك استنادا الى التوصية بأن «تلمذوا جميع الأمم". ولكنها وإن لم تكن قومية

بحد ذاتها بل عالمية. فإن تكوينها الكنسي كان ومنذ البداية ذا طابع قومي. فقد كانت في الكنيسة الأولى طوائف مسيحية يهودية وأخرى هلينية (يونانية). وقد لعب هذا المفهوم دوراً هاماً في ما بعد فيما يتعلق بتكوين الكنيسة ونظامها. فقد نشأت كنائس قومية كان أعضاؤها مرتبطين ارتباطا وثيقا بالثقافة «القومية» ولغتها. وكان هذا الأمر من الأهمية بمكان لهذه الكنائس من أجل فهمها لواقعها. وفيما يلي صورة موجزة لهذه الكنائس القومية:

أ. كنيسة "الدولة الملكية":

يرمز الاسم إلى كنيسة الدولة البيزنطية التي كانت تساند مجمع خلقدونيا (٤٥١) واسمها «ملكية» لم يكن الاسم الأصلي (وهو مشتق من مالكا بالسريانية وملكٍ بالعربية) بل كان لقبا لقبها به المسيحيون غير الخلقدونيين في القرن العاشر إشعاراً بالذم وكناية عن أن الخلقدونيين في ذلك المجمع لم يتبعوا التعليم المسيحي النقي بل أذعنوا لسلطة القيصر مارسيون. ومما لا شك فيه أن الدولة والكنيسة كانتا في الواقع متداخلتين بعضهما ببعض. وكانت الكنيسة عند نهاية القرن السادس وفى بداية القرن السابع كنيسة الدولة البيزنطية الرسمية وينتمي إليها البطاركة الثلاثة هم بطريرك الإسكندرية وبطريرك أنطاكية وبطريرك القدس. أما من الجهة الحضارية فإن الكنيسة الملكية كانت تتسم بالطابع اليوناني المحض. لأن أتباعها كانوا إما يونانيين أو من غير اليونانيين الذين كانوا من الطبقة المثقفة وتحضروا بالحضارة الإغريقية وأصبحوا هلينيين. لكن الكنيسة لم تستطع أن تثبّت في عضويتها عدداً كبيراً من المواطنين الذين كانوا يتكلمون السريانية والساكنين القرى والأماكن الصحراوية والجبلية فى سوريا وفلسطين ومصر. وكانت لغة هذه الكنيسة لغة حضارتها (أي اليونانية) وفي الوقت ذاته كانت لغة التوراة والطقس الديني. وكان النبي محمد مطلعاً على أمور البيزنطيين كما تدل على ذلك الآيات المقتبسة أعلاه. وكان تأييده لهم تأييدا حاسما كونهم المؤمنين.

ب. الكنيسة النسطورية: [١١]

يشير هذا الاسم إلى الكنيسة التي استوطنت نواحي ما بين النهرين والواقعة في دولة فارس الزاردشتيه. وبالرغم من أنها تحمل اسم نسطوريوس وهو الذي رفضت تعاليمه وأدينت في مجمع أفسس عام ٤٣١. فقد كانت تعلن أنها خليفة الكرسي الإنطاكي الفرعي وأنها أم جميع البطريركيات[١٢]. ونتيجة الصراعات التي استمرت بين بيزنطة والفرس اضطر المسيحيون القاطنون حول دجلة والفرات إلى الابتعاد شيئاً فشيئاً عن بيزنطة ليحافظوا على كيانهم هناك. وأعلنوا عن انفصالهم. والذي كان إدارياً في بدايته في مجمع سلوقية قتسيفون عاصمة الدولة الفارسية عام ٤١٠. كما أعلنوا أن كنيستهم أصبحت كنيسة وطنية مستقلة عام ٤٢٤. وكان يرأسها منذ ذلك الحين رئيس خاص بها يلقب «كاتوليكوس». وكانت تنقسم إلى عدة مطرانيات ومراكز رؤساء مطارنة. وتم بعد ذلك ليس بمدة طويلة الانفصال العقائدي. وإذ أدينت تعاليم نسطوريوس وأعلنت كافرة في مجمع أفسس عام ٤٣١ فقد جاء الانفصال

الكنسي بعد الانفصال السياسي. ولم يكن عامل الانفصال عن بيزنطة سياسيا فقط بل كان حضاريا أيضا. فقد لعبت الخلافات الحضارية دورا لا يستهان به حتى في النزاعات العقائدية أيضا. فمن الناحية الحضارية كان النساطرة يعلنون أنفسهم خلفاء الأشوريين. ولم تكن لغتهم اليونانية بل السريانية الشرقية التي ترجم بها الكتاب المقدس في وقت موغل في القدم[13] حيث كانت لغة الليتورجية والشعائر الدينية أيضا. وكانت الكنيسة النسطورية هذه وهي التي تدعى بالسريانية اليوم، من أكثر كنائس الشرق ازدهارا. وانتشر عملها الإرسالي منذ زمن قديم جدا في الخليج الفارسي وحتى جنوب العربية. وكان في منتصف القرن الثالث مطران مختص بقطر والبحرين. وبعد أن احتل الفرس شبه الجزيرة العربية أخذنا نسمع عن مطرانيات نسطورية في صنعاء وجزيرة سوقطره في اليمن. وتأسست مطرانيات نسطورية أيضا في سوريا وفلسطين في بداية القرن السابع بعد أن احتلها الفرس عام ٦١٤. وكان المبشرون النسطوريون قد وصلوا قبل ذلك - في القرن الرابع - جنوب غرب الهند وحتى الصين في عام ٦٣٥. وكان المرسلون يتبعون بالطبع الطرق التجارية. ومن غير المستبعد أن صلة كانت لهم بمكة أيضا لكونها مدينة تجارية، مما يجعلنا نفرض أن النبى محمد تعرف أيضا بالنساطرة وخاصة لأنه كان تاجراً.

ج. الكنائس القومية الوحديطبيعية (المذهب القائل بالطبيعة الواحدة):

كما أن الأسباب التى دعت إلى تأسيس كنيسة وطنية سريانية خاصة كانت أسبابا سياسية / حضارية، هكذا كانت هناك أسباب لاهوتية / حضارية دعت إلى تأسيس ثلاث كنائس قومية أخرى. وكان السبب المباشر لتأسيسها مجمع خلقدونيا الذي التأم عام ٤٥١ للبت في موضوع شخص المسيح. أما الصيغة التي أقرها المجمع أن في المسيح طبيعتين لا تقبلان «الدمج ولا الانفصال» هي الصيغة التي أراد القيصر مارسيان أن يحققها بالقوة من أجل الحفاظ على وحدانية إمبراطوريته، وكانت هذه الصيغة قد قبل بها اليونانيون والرومان ولكن الشرقيين قابلوها بالمعارضة. ويدعى هؤلاء الشرقيون «الوحديطبيعيين» لأنهم رأوا في الكلمة الذي صار جسداً طبيعة واحدة فقط أي طبيعة إلهية / إنسانية، وهم ينقسمون إلى ثلاث فئات ذات صفات حضارية خاصة.

الكنيسة الأرمنية

يعود تأسس هذه الكنيسة حسب اعتقادها إلى التلميذ برثولوماوس والرسول تداوس. وقد اهتدت أرمينيا إلى المسيحية على يد غريغور المتنور (+٥٢٣) في زمن الملك تيريداتس الثالث (٣٣٠-٣٥٢)، وتم تجزئة أرمينيا بين بيزنطة ودولة الفرس في عام ٣٨٧. وبما أن مطارنتها كانوا منذ عهدها الأول يتلقون الرسامة في قيصرية كبدوكية (جنوب البحر الأسود) والتي كانت تقع في المنطقة البيزنطية فإن الكنيسة على البديهة تبنت قرارات خلقدونية، ولم يتم رفضها إلا فيما بعد حين جرت اتصالات بينها وبين الكنيسة اليعقوبية في عهد القيصر تيودورا، وفي مجمع فاغارتاباط الذي دعت إليه

الإمبراطورة نفسها، وتأكد الرفض من جديد في مجمع دفين (Dvin) عام ٥٢٧. إنه لم يكن من بين الكنائس القومية كالكنيسة الأرمنية التي لعبت دورها القومي على هذا النحو من الروعة. فإن الشعب والدين هنا وحدة لا تتجزأ، بل هما يبادلان الأدوار. وبالإضافة إلى ذلك هناك اللغة الخاصة بها وهي الهندية الأوروبية التي طورها معروب في بداية القرن الخامس وأدى وضعها الحضاري / الجغرافي إلى تضمينها عناصر فارسية يونانية وسريانية، وسرعان ما ترجمت بهذه الكتابة الحديثة التطور كل من التوراة والطقس الكنسي وكتابات مسيحية أخرى.[14] ومما لا شك فيه أن موقع هذه الكنيسة جنوب شرق البحر الأسود وبعدها الشاسع عن الجزيرة العربية يتيحان لنا القول بأن محمد لم يعرف شيئا عن هذه الكنيسة ولم تكن له صلة مع أحد من أعضائها.

الكنسية اليعقوبية السورية الوطنية

نجد هذه الكنيسة في الغالب [15] على الأرض البيزنطية وخاصة في المناطق الجبلية في سوريا وفلسطين وأيضا في آسيا الصغرى وما بين النهرين. وإن الأكثرية العظمى من أتباعها هي من أهالي سوريا المحليين. وكانت أنطاكيا مركز هؤلاء المسيحيين التي دامت لمدة طويلة إلى أن طردهم الملكيون من هناك في بداية القرن السادس، لأن هؤلاء السوريين عارضوا قرارات خلقدونيا معارضة صريحة وخالفوا البيزنطيين. وكان الفضل في تنظيم هؤلاء المسيحيين وجمع شملهم في كنيسة واحدة يعود إلى يعقوب بارادايوس والذي سميت الكنيسة باسمه. ويدين يعقوب بنجاحه لشخصين هما أمير الغساسنة الحارث بن جبلى والقيصرة تيودورا، لأن ذاك الأمير الغساني هو الذي قدم إلى القيصرة عام ٤٥٣ وطلب منها الموافقة على رسامة بارادايوس مطرانا لإديسا (عرفة). وكانت القيصرة تيودورا وهي زوجة القيصر يوستنيان والتي كانت بلا شك من أصل وحديطبيعي، عرفت بتوليها حماية الوحديطبيعيين ودمجهم في الدولة البيزنطية على قدم المساواة. ولم يكن أمرها خافياً عن زوجها بالطبع. وإنها جعلت البطريرك الإسكندري الوحديطبيعي - وكان هو أيضا تحت حمايتها- يقوم بخدمة الرسامة هذه. كما حصل راهبان سوريان آخران على الرسامة المطرانية بإيعاز من القسطنطينية، مما أتاح لبارادايوس وهذين المطرانيين التنقل في الشرق وإجراء رسامة الكهنة وتنظيم شؤون الطوائف. وهكذا نشأ في الإمبراطورية البيزنطية في وسط القرن السادس كنيسة سورية على راسها بطريرك. وكانت لغة هذه الكنيسة اللغة السريانية الغربية التي ترجم بها الكتاب المقدس منذ عصر مبكر واسم الترجمة (ترغوم بيشيتا). ونشأ في إديسا (التي عرفت فيما بعد) ليتورجية ونظمت تراتيل خاصة بالكنيسة. ومن ميزات المسيحية السورية الهامة الأخرى رهبنتها. فخلافا لرهبنة الغرب كانت الرهبنة في الشرق خاصة بالنساك والزهاد الذين اعتزلوا الدنيا وانصرفوا إلى الصحراء والجبال النائية والأراضي القاحلة ليقضوا حياتهم في الصلاة والتخلي عن الدنيا تخلياً تاماً. وكانت صحاري فلسطين وسيناء والأردن وسوريا في القرن السادس مليئة بمثل هؤلاء الرهبان وغيرهم. وكان محمد عارفاً بالرهبان ويؤكد ذلك القرآن نفسه. ولم يكن هناك خلاف بين محمد والرهبنة إلا في وقت متأخر في الحقبة المدنية[16] (نسبة إلى المدينة). وهكذا أصبح موقف القرآن من الرهبنة موقفا ازدواجيا يتأرجح بين المدح من جهة وبين النقد الإصلاحي من جهة أخرى.[17]

الكنيسة القومية القبطية

هذه الكنيسة والكنيسة السورية الوحديطبيعية متماثلتان، بينما القبطية هي على الأرض المصرية. وحسب المفهوم السائد لديها تنسب تأسيسها إلى البشير مرقس. وكانت الإسكندرية من بين أهم المراكز الكنسية اللاهوتية قديما، ورفعت فيما بعد إلى إحدى كراسي البطريركيات الأولى. وبالإضافة إلى ذلك فقد لعب رهبان مصر وأديرتها دورا كبيرا في تاريخ أرض النيل الكنسي. فإن أديرة مصر وسكانها المحليين عملوا على وضع الخطة التي أدت إلى رفض مقررات مجمع أفسس عام ٤٣١، وأصبح الأقباط والسوريون الغربيون منذ تلك الساعة متحالفين ضد الملكيين. وكان أحد الرهبان السوريين واسمه داميان والذي عاش بين عامي ٥٧٨-٦٠٥ هو الذي ساعد الأقباط على إنشاء كنيستهم الوطنية. وكان للمسيحيين أيضا في الحالة هذه هوية قومية خاصة بهم يرجع عهدها إلى الفراعنة. وكانت هناك لهجات قبطية محلية عديدة منتشرة بين سكان مصر. وقد نقلت الترجمة السبعينية إلى القبطية في القرن الثالث أو الرابع. وأعلنت القبطية ابتداء من منتصف القرن السابع لغة الكنيسة الرسمية الوحيدة ولغة طقوسها وما يكتب فى موضوعاتها[١٨]. لكن المثقفين كانوا يستعملون اللغة اليونانية هناك أيضا.

وبالرغم من بعد مصر عن مكة بعض الشيء فإننا متأكدون من أنه كانت صلة بين محمد والأقباط. ونذكر في الدرجة الأولى امرأته ماريا. وكان والي مصر الذي عينته بيزنطة في هذا المنصب، قد أحضرها إلى النبي ووهبها له (عام ٦٢٧-٦٢٩م)، وكانت أمة. فولدت له ابنه الوحيد إبراهيم الذي وافته المنية بعد أجل قصير ٦٣٢[١٩]. أما صلة النبي بالأقباط فقد جرت طبعا قبل وفاته بمدة قصيرة وقد تكون هذه الصلة قد تمت أيضا قبل دعوته. ويروي لنا الأدب الإسلامي إحدى هذه الحالات.[٢٠]

الكنيسة الأثيوبية

كانت كنيسة أثيوبية تابعة للإسكندرية، وحسب المفهوم العام لديها يرجع تأسيسها إلى قيم خزانة (وزير مالية) كنداكة الملكة، ودخلت المسيحية تلك البلاد على يد فرومنتيوس وآديسيوس. وتم الإعلان عن الكنيسة أنها كنيسة الدولة الرسمية في عهد الملك إزنا في مملكة أكسوم بحوالي (٣٢٠-٣٤٢). وكان أول مطارنتها فرومنتيوس الذي رسمه البطريرك اثناسيوس مطرانا عام سنة ٣٣٠. وكان من جراء هذه الرسامة أن تشابكت الكنيستان الأثيوبية والقبطية بعضهما تشابكاً محكماً. ومنذ عهد مبكر جداً كان هناك اتصال بين أسوم والمذهب الوحديطبيعي السوري، لأن الرهبان اليعقوبيين هم الذين أدخلوا - حوالي عام ٤٨٠ وللمرة الأولى وبصفة رسمية - التعاليم المناهضة للخلقدونية، وأدخلوا أيضا الطقوس والعادات السورية، وكانوا هم أيضا الذين ترجموا التوراة بلغة ال Ge - ez [٢١]. وبعد أن أعلنت مصر اللغة القبطية لغتها الرسمية والوحيدة أخذت اتجاهات مماثلة تحقق نجاحا في إثيوبيا، فأصبحت لغة ال Ge-ze اللغة الدينية المقدسة وترجمت التوراة بهذه اللغة المحلية عام ٦٧٧-٦٧٨[٢٢].

وكان للنبي عدة اتصالات هامة مع المسيحيين الأثيوبيين.[٢٣] ويجدر هنا ذكر بلال[٢٤] العبد الأثيوبي الذي تصفه التقاليد الإسلامية بأنه من أوائل أتباع محمد ومن أكثرهم إخلاصا. ويروي عنه التاريخ الإسلامي أنه كان أول مؤذن وكان أيضاً أمين صندوق النبي كما تقول التقاليد أن ممرضة النبي أم أيمن كانت هي أيضا حبشية. وكان النبي أيضا يتصل أحيانا بعبد حبشي آخر اسمه جابر الذي كان يتلو آيات من التوراة والإنجيل بجهارة الموت. فلا عجب من أن بعض المؤرخين المسلمين عزوا إلى النبي معرفته باللغة الحبشية. ومن المؤكد أن القرآن، يحتوي على حوالي ٢٠٠ كلمة مستعارة من ال Ge-ez. ومن الأنباء التاريخية الثابتة ذلك النبأ القائل أنه حين كان النبي يعاني ضيقا شديدا في مكة عام ٦١٥، عمد إلى إبعاد أكثر أتباعه إلى أثيوبيا المسيحية وكانوا حسب ما روته التقاليد ٨٩ رجلا و١٨ امرأة. ولقراره هذا أن اتخذ بلداً مسيحياً ملجأ له معنى خاص ذو أهمية. وتجدر الإشارة بهذا الصدد أيضا إلى ما تناقلته القاليد الإسلامية أن المبعدين تلوا آيات من سورة مريم أمام الملك النجاشي[٢٥] ومطران فيرسي، وقصدوا بذلك إظهار الإسلام شكلاً من أشكال المسيحية.

وجملة القول: إن المسيحيين في محيط شبه الجزيرة العربية أنشأوا كنائس قومية تشابك فيها الإيمان مع الحضارة واللغة والهوية القومية المحلية وتداخلت هذه بعضها في بعض (كما كانت الحال أيضا مع اليهود والزورواسنتيين). ورغم ذلك يجب ألّا يعتبر تطور المسيحية في الشرق إلى كنائس قومية تطوراً نهائياً، لأن أموراً كثيرة كانت لا تزال بعد في حالة تحول وتبدّل حتى في القرنين السادس والسابع. وتؤكد هذه الحقيقة محاولات الاتحاد الكثيرة التي جرت فيما بينهما. وفي القرن السابع نشأ في جبل لبنان كنيسة قومية جديدة هي المارونية. وكان سبب تأسيسها الجدال حول التعليل اللاهوتي لشخص المسيح أي حول (monotheletismus and Monenergism) مما يثبت أن هذا التعليل اللاهوتي لم يصل إلى حل نهائي بعد حتى في القرن السابع. لذلك إذا اعتمدنا نيقيا وأفسس فقط في حكمنا على الإسلام لكان استنتاجنا العقائدي لا يخلو من التسرع لا بل كان إفراطا في التبسيط التاريخي الذي يؤدي إلى التشويه. وعلينا أن نعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى.

كانت هذه إذن الكنائس القومية المحيطة بشبه الجزيرة العربية. وكان ينتمي إلى بعضها أعضاء في شبه الجزيرة، وهذا دليل على وجود قبائل مسيحية عربية[٢٦]. وفيما يلي سنلقي نظرة على هؤلاء المسيحيين.

المسيحيون العرب ويمكن تقسيمهم إلى ثلاث فئات:

- **الغساسنة:** [٢٧]

سلالة عربية يمنية الأصل، استوطنت بعد أن هجرت بلادها القطاع الذي كانت تحتله دولة البيزنطيين والممتد من البتراء جنوباً وحتى الشام وتدمر شمالا والبصرة والفرات شرقاً. وبلغ الغساسنة أوج عزهم في الربعين الثاني والثالث من القرن السادس عندما

نجحوا في توحيد القبائل العربية المختلفة التي كانت تقطن تلك البلاد. ومع أن دولتهم كانت تقع ضمن تخوم البيزنطيين كانت عقيدتهم الوحديطبيعية، الأمر الذي مكنهم من القيام بدور الوسيط في حالات كثيرة. وكما ذكرنا آنفا كانت الكنيسة اليعقوبية السورية تدين ببقائها للغساسنة، لأن بطريركهم الحارث[٢٨] (ليس البطريرك هنا بالمعنى الكنسي) هو الذي سعى لدى القيصرة ثيودورا عام ٥٤٢ من أجل تحقيق رسامة يعقوب بارادايوس وثيودوروس مطرانين وأجرى الرسامة البطريرك الإسكندري. وبينما كان بارادايوس يتولى رعاية مدينة أديسا (وهي عرفة فيما بعد) والمدن الأخرى كان تيودوروس كما تقول المصادر السورية مطران الصحراء مما يشير إلى أنه كان مسؤولاً عن القبائل العربية والبدوية التي كانت تقطن مناطق حولان. وفي عام ٥٦٣ أرسل يعقوب بارادايوس الحارث في بعثة إلى القسطنطينية لينوب عنه في الجدال الذي كان قائما حول هرطقة العقيدة القائلة بثلاثة آلهة (أي الآب والابن والروح القدس، آلهة منفصلة ومتميزة). إنما موقف الغساسنة الوحديطبيعي كان السبب في سقوط دولتهم. لأن ما تم تحقيقه في عهد يوستنيان الأول (٥١٨ - ٥٣٦) لم يكن بالإمكان الحفاظ عليه أو تحقيقه في عهد طيباريوس (٥٨٢-٦٠٢). لأن هذا الأخير ألقى القبض على خلفاء الحارث وأبعدهم فيما بعد، مما أدى إلى تلاشي وحدة القبائل. واستمر الغساسنة يعيشون حياتهم القبلية لكنهم لم يعودوا ليشهدوا عصر ازدهار ثانٍ. واحتل الخليفة عمر منطقتهم عام ٦٣٧، لكنهم بقوا أمناء لإيمانهم. وكان الغساسنة من الناحية الحضارية عربا كما كانت لغتهم العربية أيضاً. ولكنه لم يتم إنشاء كنيسة قومية لهم ، فبقيت علاقتهم «بالكنيسة الأم» السورية علاقة التبعية. ولم يتم أيضاً تعريب النظام الكهنوتي والطقس الديني والتوراة بل بقيت سريانية.

- **اللخميون أو المناذرة:**

أصلهم من أواسط الجزيرة العربية وتوطنوا في أواسط بلاد ما بين النهرين (بيت عربايا) وبابل وكان مركزهم الحيرة، وخلافا للغساسنة الذين كانت أغلبيتهم بدوا كان اللخميون أو أكثرهم صناعًا أو تجاراً حضريين يسكنون المدن. لم يكن ملوك اللخميين مسيحيين إلا نادرا لكنهم كانوا يتحلون بالتسامح الديني. أما العلاقات التي كان اللخميون يقيمونها مع بيزنطة فقد كانت علاقات مؤقتة[٢٩]، لأن منطقتهم كانت تقع تحت النفوذ الفارسي، ولهذا السبب أيضاً تأثروا بالنسطورية تأثراً قوياً. وحضر مطران الحيرة هوشع مجمع سلوقية قطسبفون الذي وضع النظام النسطوري الدستوري على نحو قانوني. وكان مجمع مركابتا قد أقر الانفصال الإداري عن أنطاكية، وانعقد عام ٤٢٠ ومركابتا هذه كانت أيضًا في الدولة اللخمية. ومن المؤكد أن ملكهم النعمان الرابع لم يعتنق العقيدة النسطورية قبل عام ٥٩٢، لكن حكم اللخميين لم يكتب له أن يتخطى بداية القرن السابع. كان اللخميون عرباً بحضارتهم، الأمر الذي يثبته العدد الكبير من الشعراء المسيحيين العرب الذين برزوا من وسطهم[٣٠]. ومن الناحية الكنسية استمر اللخميون على علاقتهم التبعية «بالكنيسة الأم» النسطورية. ولم يتوصلوا هم أيضاً إلى إنشاء كنيسة قومية عربية. وبقيت لغة الطقس الديني والتوراة ولغة الكنيسة هي اللغة السريانية. وازاء الشعر العربي اللخمي لا يسع المرء إلا أن يبدي إعجابه بروعته[٣١].

- **مسيحيو نجران:** [٣٢]

المركز الثالث للمسيحيين العرب في شبه الجزيرة العربية كان في جنوبها الغربي. وكانت المسيحية قد دخلت هناك في منتصف القرن الثاني بوساطة التجار الذين كانوا يمرون عبر الطرق التجارية. ولذلك لم يكن أتباع المسيحية في هذه البلاد عرباً في بادئ الأمر، بل كانوا يونانيين أو أثيوبيين أو سوريين.[٣٣] أما السكان العرب الأصليون فلم يكونوا وثنيين بل موحدين عرباً، وكان إيمانهم يرجع حسب اعتقادهم إلى إبراهيم وامرأته قطوره.[٣٤]

وكانت نجران مركز المسيحية في جنوب غرب الجزيرة العربية، وهي وادي خصيب كان يقع في ملتقى الطريقين التجاريتين إحداهما تؤدي إلى البحر المتوسط شمالاً والأخرى إلى العراق شرقاً. وهناك أساطير كثيرة تحدثت عن دخول المسيحية إلى نجران. ومن الثابت أن عدة طوائف مسيحية كانت هناك في بداية القرن السادس، ومن الثابت أيضاً أن «دحو نواس» الذي اعتنق اليهودية غزا نجران وحمل المسيحيين فيها على أن يختاروا أحد الأمرين، إما إنكار إيمانهم أو القتل. وكثيرون هم الذين فضلوا الموت على خيانة الإيمان فاستشهدوا. ويتضح من سجل هؤلاء الشهداء أن عدداً كبيراً منهم كانوا عرباً، إنما الروحانيون والكهنوتيون لم يكونوا عرباً، ومن بينهم الكاهنان موسى وإيليا واصلهما الحيرة، والكاهن سرجيوس والشماس حنانيا وأصلهما روميان أي يونانيين، والكاهن أبراهام الفارسي وربما كان سورياً، والشماس يونان الحبشي. ومن ناحية أخرى تضمن جدول أسماء الشهداء أسماء عربية كانت في أغلبيتها مألوفة لدى الجنوب وأخرى كانت عربية عامة[٣٥].

عادت نجران تحت السيطرة المسيحية عام ٥٢٥ بعد أن زحف إليها الأيوبيون وقتلوا «دحو نواس»، وأصبحت نجران مدينة المسيحيين العرب المقدسة في جنوب الجزيرة العربية وأصبح ديرها محجاً مسيحياً يزوره المسيحيون وكان ملتجأ يفزع إليه المضطهدون، وهذا ما قاله الشعراء فيه وتغنوا به[٣٦].

ومن الأمر الممكن إثباته تاريخياً أن محمداً كان مطلعاً على مسيحيي نجران، لكنه ليس من الثابت تماماً العلاقة بين «أصحاب الأخدود» الذي ورد ذكرهم في سورة البروج (٨٥: ٤-٩) وبين شهداء نجران[٣٧]. يقول النص: «قتل أصحاب الأخدود (أي عليهم اللعنة)، النار ذات الوقود (نار جهنم ذات الوقود الذي لا ينفد) إذ هم عليها قعود (أي على نار جهنم في يوم الحساب)، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود (على ما فعلوه في حياتهم مع المؤمنين)، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (أي نقموا من المؤمنين)، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد».

وإذا كانت هذه الآيات تشير إلى ذلك الاستشهاد وفقاً لما نقلته التقاليد الإسلامية، فإننا نرى هنا مرة أخرى أن محمداً كان في الحقبة المكية الأولى مندمجاً بنفسه في مسيحيي نجران المؤمنين اندماجاً نشأ عنه ارتباط عاطفي وثيق. وعلى كل حال فإنه من الثابت والأكيد التقاء النبي مسيحيي نجران في عهد الوفود (٦٢٨)، وتم فيه الاتفاق

الذي نقلته التقاليد الإسلامية على نحو رسالة عهدة هذا نصها: «إن رسول الله كتب إلى مطارنة نجران وكهنتهم وأتباعهم ورهبانهم ... أن شعب نجران وأتباعه يتمتعون بحماية الله وذمة رسوله، ضماناً لأنفسهم ومجتمعهم وأرضهم وأملاكهم وكنائسهم (بيعهم) وممارسة شعائرهم. ولن يضطر أحد من المطارنة أو الرهبان أو الأوفياء (الذين يعطون الحق ويأخذون الحق) إلى التخلي عن مركزه، وضماناً لكل ما وجد في أرضهم صغيراً كان أم كبيراً، شريطة أن ذلك لم ينشأ من الربا أو ثمن الدم[٣٨] (مما يتلقاه القاتل المستأجر) في العصور الوثنية». أصبحت علاقة النبي بالمسيحيين منذ الآن تظهر تحولاً عما قبل، أي نحو موقف كان ليتخذه بعد الحقبة المدنية.

وبالإجمال، فإن ما يثير انتباه المرء أن المسيحيين خارج الجزيرة العربية أنشؤوا كنائس قومية بينما المسيحيون العرب لم يختبروا هذا التطور بل بقوا في أغلب الأحيان معتمدين على «كنيستهم الأم»، أي بما يتعلق بالإكليروس والطقوس الدينية واللغة الكنسية. وما يجعل هذه الظاهرة باعثة على الإعجاب بنوع خاص أنه عند تأسيس إرساليات إحدى الكنائس قومية في الشرق كانت تقوم هذه الإرساليات قبل كل شيء بالترجمة للغة المحلية ولو لبعض أجزاء هامة فقط من الليتورجية، كالصلوات مثلاً، حتى وإن لم تتمكن من ترجمة الكتاب المقدس بأكمله. وكان هؤلاء المرسلون في الوقت نفسه ومن تلقاء

أنفسهم الباعثين على إنشاء الأدب المسيحي القومي أو على الأقل إنشاء لون جديد من ألوانه[٣٩]. ومع ذلك يكتب العالم باوم شتارك ويقارن هذه الظاهرة بالجزيرة العربية ويقول: «إن الحقائق التي نعرفها عن الشرق تستند كلها إلى الحقيقة القائلة: إنه لم يكن في الجزيرة العربية من الكتب الطقسية الدينية حتى القرن السابع إلا كتباً سريانية أو يونانية. ولذلك يجدر أن نقول: إن البراهين التي يوردها الداعون إلى إنكار وجود كتابات باللغة العربية قبل الإسلام ذات طابع مسيحي، هي براهين أقوى من براهين أولئك الذين ينادون بوجودها»[٤٠]. إن السؤال عن وجود أدب مسيحي عربي يرجع إلى ما قبل الإسلام سؤال متنازع فيه جداً، والسبب في ذلك الموقف العاطفي، تضارب الأدلة والحجج. فالدعاة إلى التصديق بوجود مثل هذه الكتابات هم إما مسيحيون عرب ممن يهمهم اكتشاف التراث المسيحي العربي فيما قبل الإسلام وبعثه من جديد[٤١]، أو أولئك المستشرقون الذين أرادوا إثبات العلاقة بين القرآن والتوراة[٤٢]. أما منكروا وجود هذه الكتابات فإنهم يقصدون بذلك أن يشيروا إلى أن المسيحية عند العرب لم يكن لها أصل راسخ[٤٣] وأن العرب لم يكن لهم هذا الإيمان المسيحي الذي أساسه الكتاب المقدس، مما تسبب في كثير من سوء الفهم لدى محمد[٤٤]، بما يتعلق بالثالوث (الآب والابن ومريم) الخ.

والرأي الذي نراه أن وجود أدب مسيحي عربي واضح المعالم قبل الإسلام أمر بعيد الاحتمال. وهذا يرجع إلى الوضع القائم آنذاك. لأنه لم يكن للمسيحيين العرب هوية قومية مطلقة مما يفسر حالة الحرب التي استمرت بين الغساسنة واللخميين وكلاهما كانتا قبيلتين مسيحيتين عربيتين. والسبب الآخر أن كليهما لم يكونا مستقلين سياسياً استقلالاً تاماً. وهذا الوضع ينطبق أيضاً على وضع الكنيسة. لأن القبائل

العربية المسيحية كانت متفرقة إلى شيع وتنتمي الى ثلاثة معتقدات مختلفة هي: النسطورية (اللخميون)، والوحديطبيعية السورية (الغساسنة) والأثيوبية (نجران)، وبينما نرى أن هذين العاملين بالذات العامل القومي والعامل العقائدي لعبا دوراً هاماً لدى الكنائس القومية في صراعها مع بيزنطة، والذي أدى إلى تطوير أدب محلي مسيحي مستقل، فإننا نرى أيضا أن هذين العاملين كانا معدومين في القبائل المسيحية العربية قبل الإسلام.

لا تعنى هذه الحقيقة أن حالة العرب المسيحيين كانت حالة جمود، بل بالأحرى كانت حالة نشاط كثير. وتميزت الحقبة الزمنية في منعطف القرن السادس إلى السابع بأنها كانت حقبة إنقاد وبحث، وكانت تتوقع شيئاً ما لأن بين العرب المسيحيين كان شيء جديد آخذ في الإنشاء، لكن الإسلام حال دون حدوثه بل إن الإسلام بزغ من هذه الحال بالذات، وتمكن من بلوغ تمامه أيضا بسبب تغير الأوضاع السياسية. وما تثبته أقدم المخطوطات العربية أن المسيحيين العرب كانوا في طور انتقال من حالة إلى أخرى. ومما لا جدل فيه اليوم أن الخط العربي الذي كتب به القرآن والمعروف بالخط الكوفي كان قد نشأ في الحيرة ووضعه العباديون[٤٥]. ومن بين أقدم المخطوطات العربية الثلاث التي بقيت محفوظة لدينا نسختان من أصل مسيحي وهما مخطوطة زياد (جنوب شرق حلب) ويرجع تاريخها إلى عام ٥١٢، ومخطوطة حاران يرجع تاريخها إلى عام ٥٦٨. وما يثبت الحقيقة أن المسيحيين كانوا يمرون في دور انتقالي هو أن هاتين المخطوطتين لم تكتبا بالعربية فحسب بل أيضاً باليونانية والسريانية معاً[٤٦]. وبرغم أن الكتاب المقدس لم يكن قد نقل إلى العربية بعد[٤٧]، كانت هناك العظة المسيحية العربية في أول ظهورها.

وكان من بين أشهر الوعاظ المسيحيين قبل الإسلام قس بن ساعدة الإيادي الذي ورد ذكره آنفا. وكان ينتمي إلى قبيلة إياد واشتهر بشعره وخطبه الملهبة حماساً. وقد مات حوالي عام ٦٠٠ وحسب ما تناقلته الروايات وافته المنية في حلب. أما اسمه الأول فهو فريد في العربية واستنادا إلى علم أصل الكلام ربما كان اشتقاقه من كلمة «قس» أو قسيس التي تطلق على أحد الكهنة أو رجال الدين المسيحيين، مما جعل البعض يعتبره مطران نجران، وعلى أية حال نقل إلينا أبو الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين) وهو من أئمة الأعلام في معرفة التاريخ واللغة، القصة التالية في «كتاب الأغاني» الذي وضعه حوالي منتصف القرن العاشر: «عندما جاء وفد من إياد إلى النبي سألهم : كيف حال قس بن ساعدة؟ فأجابوه: لقد مات يا رسول الله». فقال: «أخاله أمام عيني في سوق عكاظ يمتطي جمله السكني اللون ويلقي عظته الملهبة الناس ولكني لا أعود أذكرها لسوء الحظ». فقال واحد من الوفد: «أنا أذكرها يا رسول الله». فسأله النبي: «ما كلام العظة الذي سمعته؟» فأجاب: سمعته يعظ كالتالي:

«أيها الناس! اسمعوا وعوا. إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وانهاء مجراة. إن في السماء لخبراً، وان في الأرض لعبرا. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تزكوا فناموا؟ يا معشر إياد، أين الآباء والأجداد، وأين

الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالاً، وأطول آجالا؟
طحنهم الدهر بكلكله، ومزقهم بتطاوله
في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلى مولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر» [٤٨]

يجبر بالمرء أن يسمع هذه العظة تقرأ بالصوت الجهوري إذا أراد أن يختبر حسن ذوق الفن الخطابي والوزن الشعري اللذين طبع عليهما قائلها. كما أن سماعها على هذا النحو يتيح للمرء أن يتحقق بسهولة قرابتها من النثر المنظوم في القرآن. وكان قس بن ساعدة أول من دعا إلى العظة العربية المسيحية التي تأخذ بالحسبان الوضع البيئي الاجتماعي وعبر عنها عملياً في واقعية أدبية رائعة. فلا عجب من أن قسا قد أثر في النبي أثراً عظيماً لأن النبي لم يشأ للعالم العربي إلا أن يحقق له هذا المدى وهذا الحسبان.

(نُشرت هذه المقالة في مجلة اللقاء، السنة الثانية عشرة، عدد ثالث، ١٩٩٧م، ص. ٦٥-٨٨)

الكنيسة في الشرق والسلطة السياسية القائمة انطلاقاً من خبرتها التاريخية

المقدمة

ليس هذا الموضوع بالأمر الهيّن، بل هو أشبه بالسهل الممتنع... تظنه واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار ولكن ما أن تغوص إلى أعماقه حتى تكتشف المناطق الداكنة التي يصعب أن يتغلل إليها الضياء. لذلك أود بادئ ذي بدء أن أقدم ملاحظات ثلاث علّها تريحكم وتريحني وتوضح النهج الذي اخترته لهذه المحاضرة.

١. الملاحظة الأولى تتمحور حول الكنيسة

فما هي الكنيسة؟ أو بالأحرى من هم الكنيسة؟ هل هي السلطة الكنسية، أم هي الشعب؟ هل هي المؤمنون منهم؟ أم هي كلهم مجتمعين؟ هل هي كنيسة المحليين أم أنها أيضاً كنيسة الأجانب؟

وما هي كنيسة الشرق؟ ما هي حدودها ومنطقة نفوذها؟ كيف يمكن تعريفها؟ هل هي الكنيسة الشرقية أم الغربية أيضاً؟ أسئلة كثيرة لا حصر لها، ولكنني وفي هذه المحاضرة سأسلط الضوء على الكنيسة المسيحية في فلسطين فحسب، وسأستخدم مصطلح الكنيسة المحلية بدلاً من الكنيسة في الشرق وأعني بها الكنيسة المحلية بشعبها وشعابها وقياداتها، أي الكنيسة المنظورة، كنيسة البشر لا الحجر، والكنيسة المنظورة كما يمكن معاينتها، لا الكنيسة غير المنظورة كما تظهر في كتابات لاهوتينا.

٢. الملاحظة الثانية تتمحور حول الخبرة التاريخية

فخبرة هذه الكنيسة تمتد عبر ألفي عام ولا يمكن اختزالها في محاضرة أو بعض من سويعة. لذلك لا مناص من الانتقائية، والتركيز على الخطوط العريضة كما أراها وألمسها. وخبرة هذه الكنيسة لا يمكن أن تقتصر على المئة سنة الأخيرة أو على خبرتها تحت الاحتلال الإسرائيلي. لذلك لن نحاول التأريخ تحت ضغط اللحظة الآنية وإن طالت بعض الشيء، بل إنما نحن بحاجة إلى تأريخ طويل النفس لا يألو جهداً في النظر إلى خبرات هذه الكنيسة منذ نشأتها قبل ألفي عام.

٣. مقالتنا تنطلق من الخبرة التاريخية وليس من التنظيرات اللاهوتية أو الأيديولوجية

أي لن نركز على ما نريد سماعه، أو ما نؤمن به، أو نتمناه، بل على الوقائع التاريخية كما هي، بلا تزوير أو تجميل أو تأويل. أي سندرس الأمور كما هي عليها، وكما كانت لا كما نحبها أن تكون أو كما اعتدنا عليها في العظات أو ندوات الإرشاد أو العصبيات. لذلك أتمنى ألا أغضب أحداً، كما لا أبغي أن أحابي أحداً أو أسترضيه، بل أن أنظر إلى التاريخ كما أراه، علنا نتعلم من خبراتنا، فنقوى على صياغة مستقبلنا. فمستقبلنا هو مستقبل الكنيسة والعكس صحيح.

وعليه، دعونا نوجه الأنظار إلى الموضوع الرئيسي:
«الكنيسة في الشرق والسلطة السياسية القائمة انطلاقاً من خبرتها التاريخية".
الخبرة التاريخية لهذه الكنيسة هي جزء من خبرة شعب هذا الأرض. أما التاريخ فمرهون بجغرافيا هذه الأرض بل بوضعها الجيوسياسي. فالتاريخ هو جزء من الجيوسياسة.

ففلسطين أرض غاية في الصغر تحيط بها الممالك القديمة منها والحديثة من فرس وترك وأشوريين ومصريين ومن روم وأوروبيين. لذلك ففي أغلب الأحيان كانت فلسطين محتلة وجزءاً من إمبراطورية أكبر وأعظم، وأحياناً كانت فلسطين "منطقة الحرام" التي تفصل بين إمبراطوريتين أو تتلاقى على أرضها جيوش الممالك المختلفة تقيم حروبها على هذه الأرض كي تبعدها عن حدودها، وأحياناً أخرى كانت فلسطين مقسمة إلى أجزاء يشكل كل جزء منها منطقة نفوذ للإمبراطوريات المتخاصمة. هذه الجيوسياسية لم تحدد ملامح فلسطين وشعبها فحسب بل وكنيستها أيضاً. وانطلاقاً من الجيوسياسة هذه هناك ستة دروس تستقيها الكنيسة من خبرتها وتجاربهاعبر العصور.

١. فلسطين أرض كانت وما زالت تعيش تحت الاحتلال أي أن السلطة السياسية في أغلب الأحيان كانت غريبة ولا تمت للسكان الأصليين بصلة. وبالتالي كانت السلطة السياسية بالنسبة للكنيسة المحلية أيضاً سلطة غريبة، دخيلة بل ومستعمرة. كيف تعاملت الكنيسة مع هذه السلطة السياسية الغريبة؟ لم يكن تعاملاً واحداً أو موقفاً واحداً بل مواقف متعددة وأحياناً متناقضة. فإذا راحت الكنيسة تقاوم هذه السياسة أو تعالج هذا التناقض فتُبعد قياداتها أو تقتل، وأحياناً أخرى تضطر إلى أن تنزوي وتبتعد عن حقل السياسة وكأنها ليست من هذا العالم "فخار يكسر بعضوا" «واللي بوخد إمي هو عمي» ومرة أخرى كانت تتواطئ مع المحتل. كان هناك دائماً الغيورون على المصلحة العامة والذين شكلوا جزءاً من المقاومة اللدودة، ووقفوا في وجه التيارات العاتية، لتصير دماؤهم بذوراً صالحة للكنيسة، وكان هناك دائماً الفريسيون الذين يكرسون جل اهتمامهم لحياة التقوى غير مكترثين كثيراً بالسلطة الغاشمة وكأنها لا تعنيهم، فجل اهتمامهم كان منصبّاً على خلاص النفوس ليس إلا، وكان هناك أيضاً الصدوقيون

وهم رئاسات روحية لا تقدر إلا أن تتعامل مع المحتل لتسيير أمور الرعايا، ومعظم اهتمامها مكرّس لأن تعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وكأنها تحاول دائماً أن توفق بين التواصل مع الشعب والتواصل مع المحتل.

إذاً في الكنيسة ستجد انعكاساً لجميع أطياف الشعب، وكأنها قوس قزح يحوي كل الألوان والأشكال. وتبعاً للسياق ترى أحياناً هذا اللون يطغي على غيره، أو لربما تجد لوناً آخر هو الغالب. هذا ما نراه اليوم ماثلاً في مواقف الكنائس من "الربيع العربي"، فنجد منهم المساند للشباب ومنهم المساند للرؤساء وآخرين منزوين وراء الابتهالات والشعارات. حتى أننا نجد قلة منهم مساندة للإخوان.

٢. فلسطين أرض لم تستطع يوماً أن تشكل كتلة أو دولة دامت مدة طويلة، فتاريخها ما هو إلا سلسلة وداع واستقبال للإمبراطوريات المتعاقبة. فما أن تودع فلسطين الآشوريين إلا ويطل عليها البابليون، وما هي إلا أزمنة قصيرة حتى يستبدلوا بالفرس فاليونان، فالرومان، فالبيزنطيين فبني أمية فالعباسيين فالفاطميين فالفرنجه فالأيوبيين فبني عثمان، وصولاً إلى الإنجليز فالأردنيين فالإسرائيليين.
سلسة من الغزاة لا يدحر أحدهم إلا آخر، لذلك لم يقدر فلسطين يوماً أن تلتقط أنفاسها لتشكل هوية قوية واحدة وموحدة. وقد انعكس هذا الأمرعلى الكنيسة أيضاً، إذ لم تستطع كنيسة الأرض المقدسة من أن تطور هوية كهوية الأقباط مثلاً حيث تكاد الهوية السياسية والهوية الدينية أن تكونا وجهان لعملة واحدة. ولم تنشأ هنا مثلاً كنيسة واحدة تربط بين الدين والأمة والثقافة كالكنيسة القبطية مثلاً.

كما ولم تستطع الكنيسة في فلسطين أن تنسحب إلى الجبال لتطورهوية كتلك التي طورها الموارنة حيث الماروني هو الفينيقي واللبناني، ولم تحافظ كنيسة الأرض المقدسة على لغتها الأصلية الآرامية كما فعلت الكنيسة المارونية الجارة ولم ترى كنيسة الأرض المقدسة في نفسها كنيسة الكنعانيين أو كنيسة الإسرائيليين، لأن الانقطاع هو السمة الغالبة في تاريخها لا التواصل التاريخي. لذلك بدلت فلسطين هويات كثيرة، وتأثرت دائماً بالإمبراطوريات الوافدة، بل تفاعلت كنيسة الأرض المقدسة مع الإمبراطوريات الوافدة جميعها وتأثرت بها وصبغت بصبغتها.

تتغنى كنيسة الأرض المقدسة بأنها أم الكنائس، فهنا ولد المسيح وهنا صلب وقام وصعد، وهنا سمعت البشارة السارة للمرة الأولى، وهنا ولدت الكنيسة الجامعة، ومن هنا خرج المرسلون الأوائل إلى أقصى بقاع المعمورة. ولكن ومن ناحية أخرى وإذا بحث المرء عن الهوية الأصلية لهذه الكنيسة، فلن يجدها أبداً بل تراها اندثرت بل وذابت في الهويات الوافدة إلى فلسطين.
ولا أبالغ إن قلت أن كنائس فلسطين اليوم إنما هي بقايا إمبراطوريات وفدت إلى فلسطين وحكمت وهزمت لترحل ولكن بقيت آثارها حية إلى يومنا هذا في كنائسنا. فهنا كنيسة للروم في زمن لم يعد فيه روم، وهنا كنيسة للاتين في عهد انقرضت فيه اللغة والهوية اللاتينية، وهنا كنيسة انجليكانية تشهد على

زمن امتد فيه النفوذ البريطاني إلى فلسطين، ناهيك عن كنيسة لوثرية أو ملكية تشهد على انعكاسات خارجية في الكنيسة المحلية.

وهذا ينطبق على المسلمين أيضاً فهم نتاج إمبراطورية واحدة لم تستطع يوماً من أن تشكل هوية إسلامية فلسطينية، بل بقي الإسلام رهناً بالإمبراطوريات المحيطة من أموية سورية إلى عباسية عراقية، إلى فاطمية أو أيوبية مصرية، أو عثمانية تركية.
واليوم ها هي الهويات الإيرانية والسعودية تتصارعان على أرض فلسطين باسم الإسلام.

إن كل التجليات الطائفية في فلسطين إنما هي تجليات لإمبراطوريات وافدة.
هذه حقيقة مرة ولكنها مرتبطة أصلاً بالجيوسياسة لا باللاهوت. وهذه الحقيقة المرة لها وجه آخر فيه شيء من الحلاوة... فالكنيسة في الأرض المقدسة على الرغم من تأثرها بالإمبراطوريات الوافدة، لكنها استطاعت أن تتفاعل وتتواصل معها وتؤثر بعض الشيء فيها. لقد فرضت الجيوسياسة على الكنيسة أن تطورهوية ديناميكية مرنة تستطيع أن تتأقلم مع المتغيرات الكبيرة التي راحت - عبر مر العصور- تعصف بمنتطقتنا هذه، فتلونت الكنيسة بلون محيطها الجديد كي تصير جزءاً منه وبالتالي تقدر على الصمود والبقاء.

إن هذا التفاعل بين أتباع الكنيسة المحلية وبين الإمبراطوريات الوافدة، ضخ في الكنيسة المحلية دماء جديدة طوال الوقت، مما أدخلها في صورة ما يجري في العالم الفسيح من متغيرات وتطورات فكرية وعقائدية. بل والحق يقال أن العديد من شخصيات الكنيسة المحلية ما كانوا ليعرفوا ويشتهروا لو لم ينخرطوا أصلاً في الإمبراطورية ومدارسها، بدءاً من بولس الرسول وحتى إدوارد سعيد. ففي هذه الكنيسة المحلية يصدق القول أن لا كرامة لنبي في وطنه، وأن الشهرة تمرعادة عبر عواصم الإمبراطوريات.

٣. فلسطين كانت دائماً أرض الفقراء والمساكين. شعبها الأصلي فقير يعتاش على المساعدات الأجنبية منذ زمن بطرس وبولس.
والأموال والموارد الكثيرة هي رهن للإمبراطوريات، لذلك كانت الكنيسة الأصلية تجتمع في البيوت وفي الدهاليز تحت الأرض. فالكنيسة في الأصل هي كنيسة الفقراء الذين لا مملكة لهم إلا ملكوت السموات. لذلك ترى أن كل المباني الكنسية الرئيسية إنما هي من صنع الإمبراطوريات. ابتداءً من كنيسة المهد فالقيامة التي شادها ودشنها الإمبراطور قسطنطين، مروراً بكل الكنائس في مدن فلسطين الرئيسية. هذه المباني الشاهقة والجميلة هي تجليات لهذا الإمبراطور أو لتلك الدولة، وهذا لا ينطبق على المسيحيين فحسب، بل الظاهرة نفسها بادية للعيان عند المسلمين. فقبة الصخرة لم يبنها أهل البلاد المسلمين بل عبد الملك بن مروان إمبراطور الدولة الأموية، ولا يعمر بيوت الله اليوم المؤمنون بل السعوديون أو أحد الأمراء الخليجيين.

٤. شعب هذه الأرض صار فقيراً إذ سلبت الإمبراطوريات الوافدة غلاته وموارده كما تسلب إسرائيل اليوم مياهه وحجارته.
وموارد هذا الشعب لم تكن يوماً تحت تصرفه، بل كانت تحت سلطة الإمبراطوريات الوافدة. والشيء ذاته ينطبق على الكنيسة أيضاً، فالأماكن المقدسة هي ليست للكنيسة المحلية بل هي تحت تصرف القيادات الأجنبية من يونانية أو فرنسسكانية أو ألمانية وفرنسية وإنجليزية.

أذكر أنني ذهبت في أحد الأيام إلى دير مار سابا وما ان قرعت الباب حتى فتح لي راهب متشح بالسواد، وسألني هل أنت أرثوذكسي؟ فقلت لا، فقال إنما لا يدخل هذا الدير المقدس إلا حسنو العبادة الأرثوذكسيين. والمضحك المبكي في هذا الأمر أن هذا الراهب الوقور إنما جاء بالأصل من نيويورك، فهو أمريكي الأصل والفصل وهداه الله آخيراً إلى الطريق المستقيم فجاء إلى فلسطين ليقيم الدين في الأرض المقدسة.

ما الفرق بين هذا الراهب الذي يتحكم في هذا الدير التلحمي، من ذلك المستوطن اليهودي الذي أمّ بلادنا من بروكلين ليستوطن أفرات ويمنعني من الدخول بحجة أنني فلسطيني، وأنه هو حفيد شعب الله المختار.

شعب هذا الأرض غرباء في عقر دارهم، والمستوطنون اضحوا هم أهل الدار.

لذلك كتب فولك الشارتري في تاريخه المسمى التاريخ المقدسي أن الله غرس الغرب في الشرق: «نحن الذين كنا غربيين وتحولنا إلى شرقيين. فمن كان منا من روما أو كان افرنجياً أصبح اليوم جليلياً أو فلسطينياً، ومن كان مواطناً في رايمس أو شارتر تحول الآن إلى مواطن في صور أو إنطاكيا. وقد نسينا أماكن ولادتنا».

للأسف موارد هذه البلاد ليست لأهلها الأصليين كما أن الأماكن المقدسة ليست للكنيسة المحلية بل هي هبة من إمبراطورية لأخرى، أو من زعيم لآخر ، والقرار لم يكن يوماً للكنيسة المحلية. فهي تارة هبة من هارون الرشيد إلى شارلمان (٧٩٧)، ومرة أخرى هي منة من المماليك إلى الفرنسيسكان(١٣٣٣)، أو من العثمانيين إلى اليونان (١٦??)أما أماكنها المقدسة فتدار بحسب نظام وضعه المنتصرون في حرب القرم، ولن يكون وعد بلفور بمنح الأرض لليهود بآخر المشوار، بل سيبقى الحبل على الجرار.
ويخطئ من يظن أن هذا الموضع هو حكر على المسيحيين، بل هو كذلك على المسلمين. لذلك هي ليست مصادفة أن يجعل العثمانيون القدس متصرفية مرتبطة باسطنبول عوضاً عن سوريا، وألّا يكون المسجد الأقصى في أيدي الفلسطينيين، بل الهاشميين.

٥. يظن شعب هذا الأرض انه لاعب أساسي على الساحة الإقليمية والدولية، ولكنه وللأسف مفعول به (ملعوب به)، وتتسابق الأمبراطوريات المتعاقبة بالتعاطف مع

شعب هذا الأرض، ولكنها وفي المحصلة إنما توظفه لمصالحها السياسية. وشعب هذا الارض مسكين يتمسك بكل قشة علها تنقذه من الطوفان.

من استمع يوم الإثنين إلى نقاش أعضاء البرلمان البريطاني إلى الجلسة الخاصة حول المسيحيين الفلسطينيين لا بد وأنه شاهد هذا الفيلم من قبل: فالتباكي في هذه المسرحية الهزيلة على وضع المسيحيين يظهر وكأننا بحاجة إلى حماية، في الوقت الذي يصمتون فيه عن ممارسات الاحتلال وإجراءاته التعسفية، فمصلحة الإمبراطورية مع الإمبراطورية، أما شعب هذه الأرض فهم هدف للرثاء، أو للحماية، أو للمساعدات الإنسانية. وما محاولة رئيس أساقفة كانتربري البائسة في الصيف، إلا جزء من هذا المسلسل الذي حفظناه عن ظهر قلب.

لذلك فالكنيسة المحلية ليست كنيسة أقلية، بل هي تحمل في جسدها آثار صليب مخلصها، كما وتعكس صورة الأرض التي جبلت منها وتشترك مع شعبها بآمالها وآلامها. لذلك تشكل هذه الأرض بشعبها وكنيستها وحدة واحدة، فالكنيسة من هذا الشعب وإليه، ومن هذه الأرض ولها، ويشكل ثلاثتهم مثلثاً متساوي الأضلاع.

٦. وتبقى قوة هذه الكنيسة في رسالتها الخالدة، ففي سياق تعاقب الإمبراطوريات تراها تنادي بالحرية للمأسورين، وبالخلاص للمقهورين، وأمام جبروت الأقوياء تشهد هذه الكنيسة أن «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات»... والذي هو أكبر من كل الإمبراطوريات... وأسمى من كل القوميات، ميزة الكنيسة المحلية في رجائها الذي كان وما زال على مر العصور، وبالرغم من أزمنة البؤس واليأس الشديدين. فترى أعضاءها مكتئبين لكن غير متضايقين، متحيرين، لكن غير يائسين، مضطهدين، لكن غير متروكين، مطروحين أرضاً لكن غير هالكين، يحملون في أجسادهم كل حين إماتة الرب يسوع، لكي تظهر عليهم حياة الرب المقام. ليس هذا بقانون إيمانها فحسب، بل هذه هي خبرة هذه الكنيسة التي اكتسبتها على مر الأعوام والأزمان.

الفكر اللاهوتي في السياق الفلسطيني

تعريف كلمة اللاهوت

في هذا البحث لن نستطيع أن نؤرخ حياة شخصيات وطنية مسيحية فلسطينية أو عربية بشكل عام ، فهذا يحتاج إلى بحث مستفيض. وإنما سنركز جل اهتمامنا على اللاهوتيين المسيحيين الفلسطينيين بالدرجة الأولى والذين كتبوا أو نشروا مؤلفاتهم واستطعنا أن نحصل عليها.

لذلك لن يجد القارئ ذكراً للشخصيات المرموقة مثل المطران غريغورس حجار ،والأب إبراهيم عياد ،وإيليا خوري ، وهيلاريوس كبوشي ، أو عطا الله حنا ، كما ولن نستطيع أن نتطرق إلى شخصيات علمانية كان لها دور فاعل في المجتمع الفلسطيني بل سنركز جل اهتمامنا على اللاهوت بمعناه الحصري، أي:على أنه العلم الذي يحلل ويوضح الأمور بطريقة منهجية واعية ومسئولة.ويعتبر الإيمان المسيحي في سياق حياتي معين للإنسان استناداً على أساس الإيمان الذي هو يسوع المسيح.

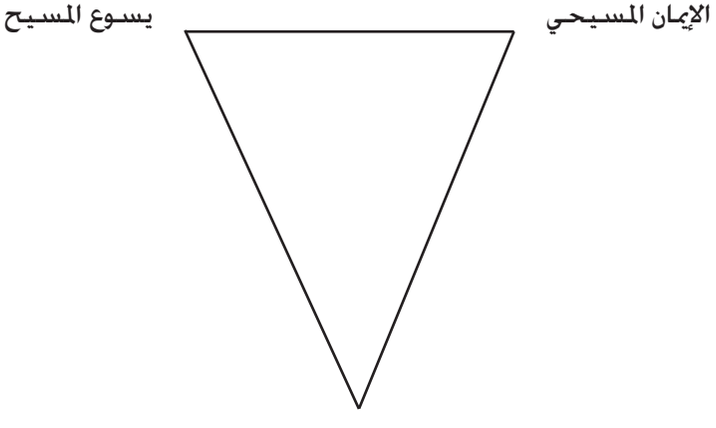

لمحة تاريخية عن تطور اللاهوت المسيحي في السياق الفلسطيني

ليس من السهل تحديد بدايات تطور اللاهوت المسيحي في السياق الفلسطيني بدقة، وذلك لعدم توفر أرشيف أرّخ مثل هذه الكتابات في العقود المنصرمة. وقد رأى الأب رفيق خوري في محاولته تأريخ اللاهوت المحلي الفلسطيني أن هذه البدايات إنما ترجع إلى العقد الثامن من القرن العشرين، إلا أنني وبحسب أبحاث أجريتها أرى أن ملامح البدايات ظهرت في العقد الرابع من القرن العشرين وبالذات إبان الإضراب الكبير.

١. البدايات

أ. البدايات المحلية :

الزمان : ١٩٣٦ - ١٩٣٩
المكان : فلسطين
السياق : الإضراب الكبير
السياق : هجرة اليهود المكثفة الى فلسطين و تنامي الحركة الوطنية في فلسطين وظهور مبشرين أجانب رأوا في الهجرة اليهودية تتميماً للنبوءات الكتابية.

في بيت لحم ، وفي كل خميس راحت تعقد في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية ندوة إنجيلية تعالج قضايا لاهوتية مثل :
- **الصهيونية والعهد القديم**
- **موقف يسوع من الوطن**
- **إساءة استخدام الكتاب المقدس**

أما اللاهوتيين الذين برزوا في هذه المرحلة منهم :
- **القس حنا بحوث، راعي لوثري وباحث**
- **القس شديد باز حداد، راعي كنيسة الإصلاح الإنجيلية اللوثرية في بيت جالا**
- **القس سعيد عبود، راعي مساعد في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في بيت لحم**

كانت هذه بدايات محلية استطعنا أن نرصدها كونها شكلت ظاهرة رصدت من قبل مجلات أجنبية. ولن نستغرب وجود بدايات أخرى شبيهة، ولكن لم ترصد أو توثق من قبل أحد ما.

ب. البدايات المسكونية

هذه البدايات بقيت محلية الطابع حتى النكبة ، ولكن بعد النكبة برزت بدايات مسكونية نذكر منها :

الزمان : ١٩٥٤ - ١٩٥٦
السياق : نكبة عام ١٩٤٨ وتشريد مئات الآلاف من الفلسطينيين، وتأسيس دولة تحمل اسم إسرائيل.

ظهور مواقف بعض الدول الغربية تجاه هذه الدولة المستحدثة :
المكان: بيروت : المجلس المسيحي للشرق الأدنى
المكان: Evanston : الدورة الثانية لمجلس الكنائس العالمي، والتي بحثت مواضيع مثل :
- **دور إسرائيل في تاريخ الخلاص**
- **استخدام العهد القديم في الخدمات المسيحية**
- **Need not Greed: الخدمة بين اللاجئين**

اللاهوتيين: فريد عودة، راعي الكنيسة الإنجيلية الوطنية في بيروت.
وشارل مالك: سفير لبنان آنذاك في الأمم المتحدة.

كانت هذه بدايات متفرقة هنا وهناك ، بعضها محلي وبعضها الآخر مسكوني ، ولكن الانطلاقة الحقيقية للاهوت المسيحي في السياق الفلسطيني بدأت بعد النكسة عام ١٩٦٧. وهنا يمكن تمييز ثلاث مراحل مختلفة في هذه المسيرة :

٢. المرحلة الأولى: المرحلة البيروتية (١٩٦٧-١٩٧٤)

السياق: النكسة الفلسطينية
- **احتلال الضفة الغربية والجولان وغزة**
- **تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية (١٩٦٤)**
- **بيروت مركز إشعاع فكري ومركز منظمة التحرير الفلسطينية**

المكان : بيروت
المواضيع :
- **العدالة والسلام**
- **تفسير الكتاب المقدس**
- **الإسلام**
- **لاهوت التحرر**

في عام ١٩٦٧ ظهرت أول وثيقة لاهوتية عربية تحت عنوان» نظرة لاهوتية على الصراع العربي الإسرائيلي» والتي شكلت ال Magna Carta للاهوت المسيحي الشرق أوسطي .

وقد اشترك في إعداد هذه الوثيقة كل من اللاهوتيين : جان كربون، جورج خضر، ألبرت لحام، سمير قفعيتي، وكان الشاب جبرائيل حبيب سكرتير هذه اللجنة.

بعدها بقليل وفي عام ١٩٦٨ أصدر ال World Student Christian Federation وثيقة بعنوان: «العدالة والسلام في الشرق الأوسط» ، وقد شكلت أول وثيقة لاهوتية تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية. كما وعقدت الكثير من المؤتمرات الشرق أوسطية والتي عالجت مواضيع حيوية ومصيرية مثل :

- **مؤتمر "الصراع الفلسطيني الإسرائيلي" عام ١٩٦٩**
- **مؤتمر حول "الأسس اللاهوتية للعمل الاجتماعي والسياسي" عام ١٩٧٢**
- **مؤتمر "المسيحي العربي وقضايا التحرر" عام ١٩٧٣**

ولا يخفى هنا أثر لاهوت التحرر الذي اشتهر في أمريكا اللاتينية والذي تأثرت به شخصيات أدبية غير مسيحية مثل محمود درويش.

في عام ١٩٦٩ شكل مجلس كنائس الشرق الأوسط ، والذي كان بمثابة الحاضنة لمثل هذه الحركة اللاهوتية. وقد أقام هذا المجلس في نفس العام مؤتمراً حول «الكتاب المقدس واللاهوت في أزمة الشرق الأوسط» برز فيه لاهوتيو هذه المرحلة وهم جبرائيل حبيب و جورج خضر و البرت لحام وسمير قفعيتي و نديم ترزي كما وتم إنشاء المؤتمر العالمي للمسيحيين من أجل فلسطين ما بين عام ١٩٧٠ الى عام ١٩٧٤ والذي برز فيه كل من جبرائيل حبيب، وجان كربون، وفؤاد بهنان.

٣. المرحلة الثانية: المرحلة المقدسية

بعد غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ وخروج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت وانتقالها إلى تونس، كان لا بد لمركز الثقل اللاهوتي أن ينتقل أيضاً من بيروت، ولكن ليس إلى تونس بل إلى القدس. وهناك كانت بدايات جديدة.

بدايات جديدة : لقاءات في القدس

الزمان: ١٩٨٠ - ١٩٨٧
السياق :

- **الثورة الإيرانية**
- **غزو لبنان**
- **حراك للانتلجنسيا الفلسطينية في الضفة الغربية**
- **حوار مع لاهوتيي الغرب**
- **المكان : القدس – بيت لحم | قبرص**

فحوالي سنة ١٩٨٠ ظهرت في القدس عدة منتديات كاثوليكية مثل: لجنة العدل والسلام فرع القدس ومركز كيرلس للثقافة الدينية والتوجيه الرسولي والندوة المقدسية.

- **لجنة العدل والسلام فرع القدس :**

«يعتبر الأب رفيق خوري في مقالته عن " اللاهوت المحلي الفلسطيني مسيرته ورسالته " ، أن أول منبر راح يحاول معالجة موضوع الهوية هو لجنة العدل والسلام | فرع القدس ، والتي نشرت سنة ١٩٨٠ أو ل وثيقة تحت عنوان " إيماننا المسيحي والوعي السياسي " ، أتبعتها سنة ١٩٨٣ بوثيقة أخرى تحت عنوان " مسلمون ومسيحيون معاً على الطريق " . وبعد انطلاقة الانتفاضة الفلسطينية راحت هذه اللجنة تصدر العديد من النشرات التي جاءت لتواكب مجريات الانتفاضة الفلسطينية ، فصدرت سنة ١٩٨٨ نشرة تحت عنوان " ستة أشهر من الانتفاضة الفلسطينية : الوضع خطير يستدعي حلا عاجلاً " ، وفي سنة ١٩٨٩ صدرت نشرتان : الأولى- عن "هدم المنازل، والثانية- وضع التعليم في فلسطين" ، وفي سنة ١٩٩٠ صدرت نشرة عن " إنقاذ السلام" ، وبيان قصير أخر عن مذبحة العمال الفلسطينيين السبعة في ريشون لتسيون. »

- **مركز كيرلس للثقافة الدينية والتوجيه الرسولي :**

ويذكر الأب رفيق في مقالته منبرين آخرين هما « مركز كيرلس للثقافة الدينية والتوجيه الرسولي» والذي نشأ في بادئ الأمر حول المطران لطفي لحام ، والذي أصبح اليوم مؤسسة مرتبطة بكلية التربية بجامعة بيت لحم ويديرها الأب د. مارون لحام . الندوة المقدسية وقد اقيمت في القدس في السبعينيات من القرن الماضي حول المطران لطفي لحام، وكانت منبراً للفكر والحوار بين شخصيات مقدسية مختلفة.

- **مركز اللقاء للدراسات الدينية والتراثية في الأرض المقدسة :**

كانت بدايات مركز اللقاء في المعهد المسكوني للداسات اللاهوتية (الطنطور) حيث كان قد أنشئ برنامج "المسيحية في الأرض المقدسة"، والذي راح الدكتور جريس خوري يديره ابتداء من أوائل الثمانينات. ليؤسس هو وبعض الشخصيات المسيحية والإسلامية سنة ١٩٨٨ مركز اللقاء للدراسات الدينية والتراثية في الأرض المقدسة.

مؤتمر التراث العربي للمسيحيين والمسلمين في الأرض المقدسة والذي عقد عام ١٩٨٣ جاء ليعزز التلاحم والتفاهم والحوار بين المسلمين والمسيحيين من أبناء الشعب الفلسطيني.

مؤتمر اللاهوت والكنيسة المحلية في الأرض المقدسة :
وقد أسس هذا المؤتمر سنة ١٩٨٧ بهدف بلورة لاهوت محلي، ومن أجل تكوين حركة أدبية نهضوية دينية، وللمساهمة في خلق حركة مسكونية في فلسطين وقد تمخض عن هذا المؤتمر "الوثيقة الأساسية " التي يعتبرها الأب رفيق خوري ال (ماكنا كارتا) للاهوت المحلي في الأرض المقدسة.

مجلة اللقاء :

بدأت المجلة بالصدور عام ١٩٨٧ وقد ضمت هيئة تحريرها العديد من الشخصيات الدينية والأكاديمية التي تمثل الطوائف المسيحية المختلفة. وقد جاءت بداية هذه المجلة متواضعة وارتقت رويداً رويداً لتصبح من أكثر المجلات المسيحية في الشرق العربي انتشاراً.

كما وراح مركز اللقاء وابتداء من سنة ١٩٩٢ بنشر مجلة دورية باللغة الإنكليزية بهدف ترجمة اللاهوت المحلي إلى اللغة الانكليزية لخلق تواصل بين الكنيسة المحلية والكنيسة الجامعة ، ولإسماع الصوت الشرقي الإسلامي والمسيحي للعالم الغربي.

تم تأسيس مركز اللقاء في عام ١٩٨٢ كمنبر للحوار الإسلامي المسيحي، كما وعقدت عدة مؤتمرات بين مجلس كنائس الشرق الأوسط بالتعاون مع مجلس الكنائس العالمي وذلك خلال الأعوام ١٩٨٣ - ١٩٨٩. كما وعقدت ما بين الأعوام ١٩٨٣ - ١٩٨٩ عدة جلسات حوار بين لاهوتيين شرق أوسطيين وآخرين من اللجنة الإنجيلية للشرق الأوسط | وألمانيا.

أما المواضيع التي برزت في هذه المرحلة فتمحورت حول:

- **الحوار الإسلامي المسيحي**
- **الحضور المسيحي والشهادة**
- **الدين والدولة**

أما اللاهوتيين الذين اشتركوا في بلورة مثل هذا الفكر فكانوا: بيتر دبرول، وجريس خوري، ورفيق خوري، وميشيل صباح، ولطفي لحام، ومنيب يونان، ونعيم عتيق، والياس شقور، ونديم ترزي، وجبرائيل حبيب، ومتري الراهب.

٤. المرحلة الثالثة: من القدس فبيت لحم إلى أقصى الأرض

لا يخفى على حد أن الانتفاضة الأولى كانت من أهم محطات تطور لاهوت مسيحي فلسطيني في الأرض المقدسة :

منذ عام ١٩٨٧ إلى الآن

السياق:

- **الانتفاضة الأولى والثانية**
- **عملية السلام وتعثرها**
- **تواصل أكبر مع الغرب المسيحي**

المكان: القدس - بيت لحم - الجليل - العالم

ففي هذه المرحلة تم تأسيس ثلاث مراكز تصدرت العمل المسيحي في فلسطين وهي:

مركز اللقاء:

بالرغم من أنه كان قد أسس عام ١٩٨٢ إلا أن اهتمامه باللاهوت المحلي بدأ عام ١٩٨٧ في مؤتمر اللاهوت والكنيسة المحلية الذي تبنى الوثيقة الأساسية «اللاهوت والكنيسة المحلية في الأرض المقدسة»

مركز السبيل للدراسات الدينية

تأسس عام ١٩٨٩

عام ١٩٩٥ تم تأسيس دار الندوة الدولية.

هذا وقد تميزت هذه المرحلة بغزارة الكتابات اللاهوتية (حوالي ٢٠ مؤلف) نذكر منها :

مؤلفات الثمانينات

• «Blood Brothers»	• الأب الياس شكور	١٩٨٤
• بطاقة ابن البلد: هموم وآمال	• الأب رفيق خوري	١٩٨٥
• «انتفاضة الأرض وانتفاضة السماء»	• جريس خوري	١٩٨٩
• «Justice and Only Justice» A Palestinian Theology of Liberation	• القس د. نعيم عتيق	١٩٨٩

مؤلفات التسعينيات

• «Blessed Are the Peacemakers»	• الأب عودة الرنتيسي	١٩٩٠
• Das reformatorische Erbe unter den Palaestinensern, zur Enstehung der Evangelisch-Lutherischen Kirche in Jordanien, Guetersloher Verlaghaus, Guetersloh	• القس د. متري الراهب	١٩٩٠
• Palaestinensisches Christentum	• الأب رفيق خوري	١٩٩٣
• Verwurzelt im Heiligen Land, Knecht Verlag	• القس د. متري الراهب	١٩٩٥
• «I Am A Palestinian Christian»	• القس د. متري الراهب	١٩٩٥
• افتتاحيات للزمن الآتي	• الأب رفيق خوري	١٩٩٦
• Seeking and Pursuing Peace: the Process, the Pain, and the Product	• سليم المنيّر	١٩٩٨
• «Caught in Between»	• المطران رياح أبو العسل	١٩٩٩

• «We Belong to The Land»	• الأب الياس شقور ‎|‎ ١٩٩٩
• «Through the Eyes of the Victims»	• القس . أليكس عوض ‎|‎ ٢٠٠١
• «Witnessing for Peace»	• المطران منيب يونان ‎|‎ ٢٠٠٣
• «Bethlehem Besieged» : Stories of Hope in Times of Trouble	• القس د. متري الراهب ‎|‎ ٢٠٠٤
• «عرب مسيحيون : أصالة ..حضور..انفتاح»	• د. جريس سعد خوري ‎|‎ ٢٠٠٧
• «عرب مسيحيون ومسلمون : ماضيا.. حاضراً..مستقبلاً»	• د. جريس سعد خوري ‎|‎ ٢٠٠٧

لم يأت الانخراط المسيحي على مستوى القاعدة فقط، بل وعلى مستوى القيادة الدينية أيضاً. فالانتفاضة الفلسطينية أجبرت رؤساء الكنائس المسيحية على توحيد الكلمة وإصدار البيانات المختلفة التي عبرت عن صوت الكنيسة النبوي الواضح الذي يدين الظلم ويفرح بالحق . وقد صدر إبان الانتفاضة ما يزيد عن ال ١٤ بياناً موقعاً من رؤساء الكنائس المسيحية في القدس ممثلة ببطاركة القدس الثلاثة (الروم الأرثوذكس ، الأرمن الأرثوذكس واللاتين)، ومطارنة الكنائس المختلفة (الكنيسة الانجيلية اللوثرية، الكنيسة الأسقفية العربية، كنيسة الروم الكاثوليك، وكنيسة السريان الأرثوذكس وكنيسة السريان الكاثوليك وكنيسة الأقباط، والأحباش الأرثوذكس) بالإضافة إلى القاصد الرسولي.

وقد صدر البيان الأول بتاريخ ١٩٨٨/١/٢٢ أي بعد ما ينيف عن الأربعين يوماً من انطلاق الشرارة الأولى للانتفاضة، أعرب رؤساء الكنائس فيه عن وقوفهم إلى جانب الحق ورفضهم للظلم والقتل، وعن تضامنهم مع المضطهدين والمتألمين والمبعدين مستشهدين بسفر أشعياء النبي (١٧:١) «تعلموا فعل الخير. اطلبوا الحق . انصفوا المظلوم. اقضوا لليتيم...حاموا عن الأرملة». وقد أعلن في هذا البيان عن يوم الجمعة الموافق ٢٩ كانون الثاني ١٩٨٨ كيوم للصوم والتضامن مع المتألمين. كما و دعا رؤساء الطوائف تخصيص يوم الأحد الموافق ٣١ كانون ثاني كيوم للصلاة من أجل العدالة والسلام وأوصوا بتوزيع تبرعات ذلك الأحد للمعوزين والفقراء.

كما وشكل اختيار البابا لغبطة البطريرك ميشيل صباح (١٩٨٨ - ٢٠٠٨) دفعة جديدة أمام هذه الحركة اللاهوتية والتي تجسدت في:

الرسائل الرعوية للبطريرك ميشيل صباح

وقد صدر منها :

- **في بهاء السلام ‎|‎ ١٩٨٨**
- **في بهاء السلام : " اسألوا السلام لأورشليم" ‎|‎١٩٩٠**
- **قراءة الكتاب المقدس اليوم في أرض الكتاب المقدس ‎|‎ ١٩٩٣**
- **الاستعداد ليوبيل عام الألفين ‎|‎ ١٩٩٧**
- **سؤال وجواب في البحث عن العدل والسلام في أرضنا المقدسة ‎|‎ ١٩٩٨**
- **"قد اقتربَ وقتُ رَحِيلِي... وأتممتُ شوطِي وحَافَظتُ عَلَى الإيمان" ‎|‎ ٢٠٠٨**

كما وقد اشتهرت هذه المرحلة بغزارة المؤتمرات اللاهوتية، فعقد منها:
مركز اللقاء ١٥، مركز السبيل ٧، دار الندوة الدولية ٤، جامعة بيت لحم ١

المواضيع:

- الوجود المسيحي في الأرض المقدسة - الهجرة
- العدالة والسلام
- الهوية المسيحية العربية الفلسطينية
- الأرض والشعب
- قراءة فلسطينية للكتاب المقدس
- الحوار المسيحي اليهودي

اللاهوتيون: البطريرك ميشيل صباح، والمطران لطفي لحام، والمطران منيب يونان، والمطران الياس شقور، والمطران رياح أبو العسل، والقس نعيم عتيق، والأب رفيق خوري ، والأب مارون لحام، والقس متري الراهب، وأليكس عوض، وسليم منيّر، والأب عودة الرنتيسي.

خصائص اللاهوت المسيحي في السياق الفلسطيني

من يتأمل هذه المسيرة الطويلة الحافلة لا بد وأن يكتشف خصائص ميزت هذه الحركة عن غيرها ومنها:

١. شكلت هذه الحركة اللاهوتية الفلسطينية جزء لا يتجزأ من حركة الأنتجلسيا الفلسطينية ،سواءاً في المرحلة البيروتية أم المقدسية فكان جل اللاهوتيين من المثقفين الفلسطينيين الذين حملوا همّ الوطن على أكتافهم وانبروا يدافعون عن قضايا أمتهم ويشحذون أقلامهم لهذه المهمة الكأداء. لكنّ كتابتهم جاءت في أغلب الأحيان في سياق أزمات سياسية (١٩٤٨ النكبة ، ١٩٦٧ النكسة ، ١٩٧٩ الثورة الايرانية ، ١٩٨٧ ‎|‎ الانتفاضة الأولى والثانية) عبرت عن نبض الشارع ولكن

كانت أحياناً كغيرها من المحاولات الفلسطينية مجرد مجموعة من الإنفعالات أو التمنيات.

٢. شكلت هذه الحركة رد فعل على لاهوت غربي يحابي اسرائيل سياسياً ولاهوتياً، فكان واجب التصدي للاهوت الغربي واجباً مسيحياً وفلسطينياً في نفس الوقت.

٣. كان وما زال لهذه الحركة اللاهوتية طابع مسكوني، ينخرط فيه لاهوتيون من أكثر الطوائف من أرثوذكسية (لبنان) ، وكاثوليكية (فلسطين) ، ولوثرية (فلسطين) ، وأسقفية (فلسطين) ولكنه يفتقد في كثير من الأحيان إلى رؤية مشتركة ، تفرز عملاً مشتركاً ، فيعمل الكثيرون منفردين .

٤. هو لاهوت يطلب الحوار،وأي نوع من الحوار ؟ الحوار الإسلامي المسيحي، وأيضا الحوار المسيحي اليهودي، ولكن يخاف من هذا الحوار أن يخرج الى العمق.

٥. لاهوت سردي قصصي يرتبط بالأفراد ، ولم يرتق بعد ليكوّن حركات أو مدارس فكرية ذات عملية تراكمية، كما وأنه يفتقر إلى البنية التحتية كرابطة أو جامعة للاهوت مسكوني.

٦. لاهوت لفت الانتباه عالمياً، فكتبت عنه عشرات رسائل للدكتوراه، ولكنه ما زال يفتقر لأتباع محليين.

٧. لاهوت بحث في العديد من القضايا المختلفة، ولكنه لم يستطع بعد أن يكون منظومة لاهوتية فكرية متكاملة ، وما زلنا نبحث في الجزئيات بعيدين عن التكامل والشمول .

٨. لاهوت حديث بعض الشيء ، لاهوت ارتبط بالهوية العربية الفلسطينية الوطنية الآنية ولم يبحث في جذوره وخبراته التاريخية المتراكمة الدفينة، ولا في سياقه الإقليمي.

٩. لاهوت أنتج كمّاً لا يُستهان به من المنشورات يشكل انجازاً ونجاحا متميزاً، خاصة اذا ما أحصينا تعداد أتباعه.

١٠. لاهوت جل مفكريه من المتقاعدين أو ممن يوشكون على التقاعد، ويفتقد لجيل جديد يتابع هذه المسيرة.

نحو مقال لاهوتي جديد لمقام فلسطيني قديم . . .

في الختام أود أن أُأسس هنا لمحاولة جديدة متواضعة لمقال لاهوتي مسيحي جديد في مقام فلسطيني قديم.

- **سر الأرض**

نبدأ بالمقام ...والمقام هو الأرض ... هذا الشريط الرفيع بين الأردن والبحر المتوسط ... مقامه الجيو سياسي: نحيطه وتتحكم فيه خمس قوى إقليمية عظمى لها حضاراتها وشعوبها وهوياتها:
١) مصر من الجنوب الغربي
٢) ايران ،والعراق من الشرق ا تركيا وسوريا من الشمال
٣) قوة اوروبية من الغرب : اليونان - الرومان - الفرنجة

جيوسياسياً، فلسطين هي أرض جبالها تحيا على هامش التاريخ ، وخير ما تصلح أن تكون ساحة وغى للقوة الاقليمية العظمى ...ممر للجيوش ...مختبر لأسلحتها.... ومهوى لأطماعها .

- **سر الشعب**

شعب هذه الأرض يداس بالأقدام مرة تلو الأخرى ... وما أن يلتقط أنفاسه إلا ليتلق ضربة جديدة ، مدنه تنتهك...وتدمر ، تحرق وتسلب ، زهراته تقطف قبل أوانها، شبابه يقتلون ويؤسرون قهراً وتعذيباً ويشردون عنوةً ، وهم دائمو الطواف يبحثون عن لقمة عيش.

شعب هذه الأرض.....
شعب ،شيوخه تبقى تحرس المدائن ... فقراؤه هم من يتمسكون بترابه
شعب هذه الأرض، مساكينه ترث الأرض
شعب هذه الأرض، اما يحيا في أرض محتلة من بابل ولكنها موحدة ، واما ينقسم على ذاته ويصير قرباناً يضيء زيته مذابح وهياكل القوة الاقليمية.

- **سر الله...**

إله هذه الأرض ليس ككل الآلهة ...
آلهة فرعون تختال بأهراماتها ...
وآلهة بابل محفورة بالذهب على أسوارها ...
آلهة روما وأثينا والقسطنطينية معابدها شاهقة ، عظمتها ظاهرة ، ثرواتها تتراكم

عبر العصور والأزمان
أما إله هذه الأرض فليس ككل الآلهة ...
أرضه تحرث بالحديد ... هياكله تدمر بالنار ...
شعبه يداس بالأقدام وهو لا يحرك ساكناً ...
إله هذه الأرض خفى عن الأنظار تبحث عن آثاره فلا تراها ، تشتهي أن يشق السماوات وينزل لينظر، ليسمع ، ليتحنن، ليخلص ...
شعبه يصرخ : «وينك يا الله» ... لماذا تختفي عنا في أزمة الضيق ...
نساؤه تستجدي : «حسبي الله ونعم الوكيل ... ولكنه يبقى ملتفاً بالعمق وكأنه نائم ... أو مائت ... أم منشغل...

اله هذه الأرض لا يصد الجيوش الغاشمة بل يتقاسم مع شعبه مصيراً واحداً ... بيته يهدم ... ابنه يصلب...ولكن سره لا يفنى ... بل من وسط الرماد ينهض ومع اللاجئين تراه يسير ... وفي عتم الليل
يفجر ينابيع رجاء...
بدون هذا الإله تبقى فلسطين أرض محروقة ...
تبقى ساحة وغى ولكن إذا داس الإله أديمها فقط جعلها أرضاً مقدسة ...أرضاً تصدح في روابيها بشرى السلام...
مذ اختار هذا الإله أرضنا هذه إلا وغير الجغرافيا وهزم السياسة ... فأصبح نهر الأردن اشهر من نهر النيل وبيت لحم أشهر من روما والقدس في قلب خارطة العالم...

- **سر المسيح** ...

شعب هذه الأرض ينتظر المسيا ليخلصه من قدره...
وينتشله من محنته ويعيد له كرامته...
أحياناً يدعى هذا «صلاح الدين» ومرة أخرى «أبا زيد الهلالي» ومرة ثالثة «المهدي...»
شخص واحد ووحيد سيقلب أمر الأمة راساً على عقب
وننتظر وننتظر ولكن دون جدوى...فالزمن يبدو أنه لا يتغير...المخلص لا يأتي...والوضع يبقى على حاله ...
السر الكبير أن المسيا قد جاء الى أرضنا قبل ألفي عام ...
إذ ولد طفل المغارة وانتهى الانتظار
وحقق الله ما عجزنا نحن عن تحقيقه
وكمل الفادي الخلاص الذي كنا نتوق اليه
وهو الذي قال ما ينبغي أن يقال ...
وفعل ما كان واجباً فعله...
والباقي ...الباقي علينا ... الباقي تفاصيل...

المسيح لن يتجسد على هذه الأرض بعد اليوم من جديد
المسيح تجسد مرة واحدة فقط
بعدها لن يتجسد الا عن طريق شعبه...

إذ آمنا أن يسوع هو المسيا المنتظر ... فلن ننتظر بعد اليوم هباءً
ولن نضيع الوقت نستجدي السماء ... ولن ننتظر من الآخرين ما لا حول لهم عليه ...
بل سنجند أيادينا وأرجلنا وعقولنا كي تتجسد مشيئة الله على هذه الأرض كما هي في السماء...

- **سر الروح**

شعب هذه الأرض يهوى أحياناً القوة ... يريد أحياناً كثيرة أن يتصور على شاكلة القوة العظمى التي تحيط به ...
وتسول له نفسه أن يكثرمن قوته ،وينسى أنه لا بالقوة ولا بالقدرة ستكون له الغلبة، بل بالروح...
سر هذا الاله في روحه
وسر هذا الشعب في هذه الروح التي تجدد قواه المرة تلو الأخرى ...
فالصعوبات تحفه من كل جانب ،تضيق عليه فضاءه ، ولكن مع ذلك لا ييأس بل يكرز بالرجاء...
يُطرح أرضاً ولكنه لا يموت بل يقوم يبشر «أن على هذه الأرض ما يستحق الحياة» ...
تطبق عليه الدنيا ولكنه لا يفقد بصيرته بل يعطي رؤى ويرسم على أبواب العتمة قوس قزح كثير الألوان...

- **سر القريب**

ما أسرع أن يصبح القريب غريباً... على هذه الأرض
فالإمبراطوريات العظمى تفرخ في فلسطين أتباعاً لها يحلفون باسمها ويحملون السيوف التي تحمل خاتمها ، أو وشمها...
على هذه الأرض، لا مكان لهوية واحدة موحدة قوية تتراكم عبر الأجيال والأزمات ، بل تبقى هذه الهويات متقطعة ، متصارعة ، وتنشأ على خصابها ثقافات متقوقعة على ذاتها ، منغلقة على نفسها ، منطوية على أتباعها فهم وحدهم المخلصون أما الباقي فكفرة وهم وحدهم الشرفاء أما البقية فخونة ، وهم وحدهم أصحاب الحكمة أما الآخرين فجهلة...

على هذه الأرض يبتعد اليهودي عن السامري ، والمسيحي عن المسلم ، والحمساوي عن الفتحاوي، وينسى شعب هذه الأرض ودعوته بان الفن الحقيقي هو القدرة على أن نحول العدو إلى رفيق وأن نجعل من الغريب قريباً وأن نشيد جسور تواصل لا جدران تخفي وراءها إنسانية الجار وتعزله عن العين وتطرده من القلب وتزرع حقول حقد وتعصب وتشرذم وضغينة.

على هذه الأرض، يجرم الآخر تارة باسم الثقافة ، وأخرى باسم الدين وثالثة باسم السياسة ، مع أن لا ثقافة حقيقية ، فمن قال أنني أحب الله وأبغض أخاه فهو كاذب...

• **سر الملكوت**

شعب هذه الأرض يتوق لمملكة مثل باقي الشعوب، ويسعى لدولة مثله مثل باقي الأمم... ولكن كيف السبيل إلى ذلك والامبراطوريات من حوله تشتهي أرضه وتحتل بيته وتستبيح دمائه؟

وقد اجتهد آباؤنا في ذلك وطوروا لأنفسهم مواقف أربع:-

أ. **الموقف الهيرودسي**
حيث نادى أن لا سبيل للنصر إلا بالتحالف مع القوة العظمى . وهذا التحالف سيمنّ علينا بالدولة المنتظرة

ب. **الموقف الفريسي**
حيث نادى بأن ما من حل إلا إذا التزم الشعب برمته بالشريعة سبيلاً عندها سينهزم الاحتلال وتحيا الأمة

ج. **الموقف الغيوري**
حيث نادى بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة ..وأن روما لا تفهم إلا لغة العنف والشدة

د. **موقف يسوع المسيح**
نادى بأن الأرض بحاجة إلى رؤيا تخترق الحواجز وأن الشعب بحاجة إلى من يمكّنه، كي لا يبقى متفرجاً بل يصبح مؤمناً واعياً وفاعلاً.

(نُشرت هذه المقالة في مجلة اللقاء، السنة الرابعة والعشرون، العدد الأول، ٢٠٠٩م، ص. ٤٩-٦٨)

محمود درويش والكتاب المقدس

على غير ميعاد وقبل الأوان رحل عنا الشاعر الكبير محمود درويش ...
ولقد قيل الكثير في هذا الشاعر الكبير ...
وكتب عنه أكثر مما قيل ولن أحاول أن أدلو بدلوي في هذا السياق ...
ولكنني ارتأيت أن نتأمل بموضوع لم ولن يكتب فيه شيئاً البتة ألا وهو :
محمود درويش والكتاب المقدس ...

وليس هذا بالأمر الهين ...فما سأحاول أن أعرضه عليكم اليوم في عجالة يصلح أولاً وأخيراً موضوعاً لأطروحة دكتوراه في الأدب الفلسطيني المعاصر أو في اللاهوت، ولكنني وكثيراً ما كنت أقف مندهشاً أمام شاعرنا الكبير وهو يوظف الرمز الكتابي في شعره ... ولو لم يكن اسم شاعرنا محموداً لظننته مسيحياً يكتب لاهوتاً ...
بل عالماً يفسر الكتاب المقدس على ضوء الواقع ...أو واعظاً يترجمه من سياقه إلى السياق الفلسطيني المعاصر ...

أجل... لقد ألم فقيدنا بالكتاب المقدس كما لا يلم أحد به إلا اللاهوتي المخضرم... فكتب في شعره عن السامرية[١] وعن مريم المجدلية[٢] وعن المرأة التي سكبت الطيب على رجلي يسوع ...[٣]

ومن العهد القديم ذكر يوسف وأخوته[٤]، وإبراهيم[٥] وإسماعيل[٦]، ويشوع بن نون[٧] وداود وسليمان[٨]، وأغاني سليمان[٩]... وأيوب[١٠].. هذا ناهيك عن قايين وهابيل[١١]
والأرض التي تفيض لبناً وعسلاً[١٢] ... وسدوم وعمورة[١٣] ...ولوط[١٤] ...ونوح[١٥]...وأشعياء[١٦] ... وحبقوق[١٧] ...

وفي شعره ذكر ميلاد المسيح... ومعموديته... وتجربته على الجبل[١٨] ... وتعاليمه وأعجوبته الأولى في قانا الجليل حين حول المسيح فيها الماء إلى خمر[١٩]، وذكر أيضاً مَثَل الكرم [٢٠] ومشية يسوع على البحيرة[٢١]... وصلبه ...وقيامته وعودته الثانية[٢٢] ...

بل وألمّ شاعرنا الكبير وحفظ الكثير من آيات الكتاب المقدس عن ظهر قلب ... وسخرها في شعره... فمن هللويا ... إلى إيلي إيلي لماذا تركتني إلى أن المحبة قوية كالموت... وباطل الأباطيل... وإلى اقتباسه من كلمات يسوع إلى اليونانيين: بأن حبوب سنبلة تموت ستملأ الوادي سنابل .

وفي إحدى آخر المقابلات مع جريدة الحياة سؤل شاعرنا الكبير «ما دمنا نتكلم عن الدين نلاحظ أن في شعرك أثراً توراتياً ولا سيما من «نشيد الأناشيد». يتمثل في غنائيتك العالية في ديوان «سرير الغريبة» وسواه! ما الذي يجذبك كشاعر في النص التوراتي وكيف أثر فيك؟ فأجاب : « في البداية، درست في الأرض المحتلة، وكانت بعض أسفار التوراة مقررة في البرنامج باللغة العبرية، ودرستها حينذاك. لكنني لا أنظر إلى التوراة نظرة دينية، أقرأها كعمل أدبي وليس دينياً ولا تاريخياً.»

ثم سؤل مباشرة : «هل التوراة مصدر من مصادرك؟»
فأجاب بدون تردد: «لا شك في أنها أحد مصادري الأدبية.»
ومن ثم سؤل : «هل أعدت قراءة التوراة بالعربية؟»
وأردف: «أجل، قرأت ترجمات عربية عدة ومنها الحديثة. وأحب فيها بعض الركاكة. فمثل هذه الكتب يجب أن يترجم بطريقة خاصة. و«نشيد الأناشيد» يعتبره كبار الشعراء في العالم من أهم الأناشيد الرعوية في تاريخ الشعر، بغض النظر عن مصادر هذا النشيد الفرعونية أو الآشورية.» [٢٣]

من يقرأ هذه المقابلة لابد له أن يصاب بالدهشة، إذ سيكتشف أن شاعرنا لاهوتياً مخضرماً قرأ الكتاب المقدس بلغات عدة وترجمات كثيرة وأنه فعل هذا مرات عديدة ... وقد يتساءل المرء : ألم يقلل شاعرنا من قدر الكتاب المقدس عندما أقر بأنه يقرأه ككتاب أدبي فقط وليس ككتاب ديني أو تاريخي؟
هذا ما يبدو للوهلة الأولى وبصورة سطحية...

أما إذا أدركنا أن الأدب هو الشيء الوحيد الأزلي في فكر شاعرنا لأدركنا أهمية الكتاب المقدس له ... فلو كان تاريخياً أو نصاً دينياً فحسب لكان أرقى ... ولكن ما دام هو أدبي فهو إلهي ...قوي ...ووجودي ...

في الأيام الأخيرة أردت أن أُعيد قراءة قصائد محمود من قصيدته الأولى وحتى الأخيرة لأرى كيف ومتى ولماذا اقتبس شاعرنا من الكتاب المقدس...
واكتشفت في قراءتي هذه أربع مراحل مختلفة في حياة محمود... هذه المراحل هي السياق... الفلسطيني أو الدولي، أو الشخصي لمحمود... وفي كل من هذه المراحل ستكتشف أن نصاً كتابياً معيناً هو الذي استحوذ على تفكير شاعرنا...أجل لكل مرحلة نص...ولكل مقام مقال ...

وسأحاول على عجالة أن أبين هذه المراحل الأربعة :

١. المرحلة الأولى: ١٩٦٤ – ١٩٦٧

محمود الشاب ...ابن البروة المهجر ...في أوائل العشرينيات من العمر ...يعيش في حيفا مهجراً ...مطارداً ...سجيناً ومناضلاً ...
في هذه المرحلة رأى محمود في المصلوب مرآة له ...
رأى فيه مناضلاً ... ثائراً ... متألماً ومقاماً ...

ففي أول أربع قصائد له، عندما تفتحت قريحته الشعرية كان الصليب حاضراً في ثلاث منها، ومن يقرأ هذه القصائد سيظن أنه أمام لاهوتي تحرري من أمريكا اللاتينية. ربما كلنا حفظنا قصائده هذه والتي أنشدها مرسيل خليفة دون أن نفطن للاهوت التحرري الذي كان يعبق بها.

ففي قصيدته عن إنسان أو Ecce Homo يقول:

«وضعوا على فمه السلاسل
ربطوا يديه بصخرة الموتى
وقالوا أنت قاتل
أخذوا طعامه والملابس والبيارق
ورموه في زنزانة الموتى وقالوا : أنت سارق
«يا دامي العينين والكفين
إن الليل زائل
لا غرفة التوقيف باقية
ولا زرد السلاسل
نيرون مات ، ولم تمت روما
بعينيها تقاتل
وحبوب سنبلة تموت
ستملأ الوادي سنابل .» [٢٤]

وفي قصيدة « قال المغني» يقول :

المغني على صليب الألم
جرحه ساطع كنجم
قال للناس حوله
كلّ شيء . . سوى الندم:
هكذا متّ واقفا
واقفا متّ كالشجر !
هكذا يصبح الصليب
منبرا . . أو عصا نغم
و مساميره. . وتر !
هكذا ينزل المطر
هكذا يكبر الشجر . .

في هذه القصيدة معنى الصليب واضح وضوح الشمس : فهو سبيل الفداء ... ومنبر للنضال ... وطريق وحيد للخلاص...

ومثال أخير عن هذه المرحلة من قصيدته : «نشيد»:

– ألو . .
– أريد يسوع
– نعم! من أنت !
– أنا أحكي من « إسرائيل »
وفي قدمي مسامير . . وإكليل
من الأشواك أحمله
فأي سبيل
أختار يا بن الله . . أي سبيل
أأكفر بالخلاص الحلو
أم أمشي؟
أم أمشي و أحتضر؟
– أقول لكم « أماماً أيها البشر ! »

هنا أيضاً محمود يحمل صليبه يخاطب المصلوب وقد أعياه التعب ...وقد أضناه الشك ... ليسمع يسوع يخاطبه ويشجعه أن يُكمل المسيرة إلى النهاية وأن يسير قُدُماً نحو الجلجلثة

في هذه المرحلة الأولى كان آخر ذكر للصليب في قصيدته: أغنية حب على الصليب، وهي القصيدة التي يخاطب المصلوب فيها عشيقته مدينة القدس:

أحبك كوني صليبي
وكوني ، كما شئتِ ، برجَ حمام
إذا ذوبتني يداك
ملأت الصحارى غمام

هنا أيضاً نجد أن للصليب معنىً ... فهو تعبير عن محبة أزلية... إنه رسالة سلام سرمدية، وبشارة خير وعطاء للبشرية...
لقد كتب محمود قصيدته هذه في نفس السنة التي سقطت فيها مدينة القدس تحت الإحتلال وكان هو تحت الإقامة الجبرية في منزله.
بعد سقوط القدس يخبو الرمز الديني في شعر درويش وكأن لسانه قد شُل من هول ما يجري...

في هذه المرحلة ينضم درويش إلى الحزب الشيوعي ومن ثم يترك البلاد إلى موسكو ومنها إلى مصر ليستقر أخيراً في بيروت...

في هذه الفترة ما بين سقوط القدس عام ١٩٦٧ وحتى حصار بيروت علم ١٩٨٢ يتجنب شاعرنا الكتاب المقدس، ويبتعد عن الرمز الديني، فهو الشيوعي فيها، أراد أن يعيش خارج الأسطورة ولخمس عشرة سنة يخبو الوحي الكتابي عن شاعرنا ويستبدل المصلوب باتحاد سوفيتي يؤمن به ويتواصل معه، وبحلم اشتراكي يحمله معه... ولكن كان الوحي أقوى وحلم الأسطورة أغنى...

الصليب كان حاضراً في شعر محمود درويش منذ اللحظة الأولى التي تحرك فيه قلمه وجاشت قريحته... في هذه المرحلة الأولى من حياته (١٩٦٤-١٩٦٧) رأينا في درويش لاهوتياً تحررياً مخضرماً يجد في المصلوب المثل الأسمى prototype للسجين والشهيد الفلسطيني الذي يرفض الخنوع أو الإستسلام والذي يسطر بدمائه أعظم تضحية ويجعل من الصليب سلماً للغد الموعود.

ومن ثم رأينا كيف أن بعد نكسة ١٩٦٧ خبا الوحي عند درويش... الذي التحق بالحزب الشيوعي الإسرائيلي ومن ثم غادر إسرائيل إلى موسكو ليستقر في بيروت.

في هذه المرحلة من شعر درويش لا نرى أي أثر يذكر للكتاب المقدس في نصوص درويش التي خطها بين عامي ١٩٦٧ ومن حصار بيروت عام ١٩٨٢.

وفجأة ومن قلب حصار بيروت عام ١٩٨٢ وعلى وقع صبرا وشاتيلا تتحرك قريحة محمود درويش مرة أخرى...

٢. المرحلة الثانية :

ومنها تبدأ المرحلة الثانية فما حدث للشعب الفلسطيني في بيروت يشبه ما حدث مع المسيح ... كيف سلمه أقرب المقربين ...وتقاسموا تركته وأنكروه وتركوه وحيداً على الصليب... بل ووضعوه في القبر، حاصروه بين الحجارة...

« كسروك ، كم كسروك كي يقفوا على ساقيك عرشاً . . .
وتقاسموك وأنكروك وخبأوك وأنشأوا ليديك جيشاً
حطوك في حجر وقالوا : لا تُسلم
ورموك في بئر وقالوا : لا تُسلّم
وأطلت حربك يا ابن أمي
ألف عام ألف عام في النهار،
فأنكروك لأنهم لا يعرفون سوى الخطابة والفرار
هم يسرقون الآن جلدك

فاحذر ملامحهم، يا ابن أمي
يا ابن أكثر من أب
كم كنت وحدك . . .» [٢٥]

مثال آخر من هذه القصيدة يكتب فيه محمود:

« الله أكبر
هذه آياتنا فاقرأ
باسم الفدائي الذي خلقا
من جرحه شفقا
باسم الفدائي الذي يرحل
من وقتكم . . .لندائه الأول
الأول والأول
سندمر الهيكل
باسم الفدائي الذي يبدأ
اقرأ . . .
بيروت صورتنا
بيروت سورتنا . . .» [٢٦]

في هذه القصيدة عينها يربط محمود بين القرآن والكتاب المقدس ... وكأنه نبي تنزلت عليه سورة أسماها بيروت... وعلى وقع سورة العلق ... يقرأ محمود درويش قصيدته. ولكن يقرأها باسم الفدائي الذي خلقا في جرحه شفقا... والذي نادى بأنه سيهدم الهيكل ليبنيه في ثلاث أيام.

من يقرأ مديح الظل العالي هذا سيجده يزخر برموز كتابية من أيوب المتوحد [٢٧] وآدم الذي ترك الجنة كما ترك الفلسطينيون بيروت [٢٨] إلى مريم المجدلية [٢٩] إلى أشعياء الذي رثى القدس ودرويش الذي هجا بيروت [٣٠] ورموز وآيات أخرى كثيرة.

المرحلة الثانية في حياة درويش بدأت بحصار بيروت واستمرت حتى ما قبل أوسلو بقليل... وقد كانت هذه المرحلة مصيرية. فبعد بيروت شعر الفلسطينيون أنهم وحيدون متروكون في العالم العربي... وأن العرب قد باعوا القضية الفلسطينية كما بيع يوسف من قبل إخوته:

« أنا يوسف يا أبي
يا أبي إخوتي لا يحبونني . . .

لا يريدونني بينهم يا أبي
يعتدون علي ويرمونني بالحصى والكلام.
يريدونني أن أموت لكي يمدحونني.
وهم أوصدوا باب بيتك دوني.
وهم طردوني من الحقل
هم سمموا عنبي يا أبي.
فماذا فعلت أنا أبي ولماذا أنا ؟
أنت سميتني يوسفاً ، وهمو أوقعوني في الجب ،
واتهموا الذئب : والذئب أرحم من إخوتي . . .
أبت ! هل جنيت علي أحد عندما قلت إني :
رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ، رأيتهم ساجدين.» [٣١]

وما ميز هذه المرحلة أيضاً هو انهيار الإتحاد السوفيتي والذي شكل صدمة لشيوعيّ مناضل. فرأى العالم برمته ينهار أمام عينيه...

وأمام خيانة العرب وانهيار الإتحاد السوفيتي يشعر درويش أن الكل قد تخلى عنه حتى الله... ولكنه في هذه الفترة بالذات يدخل في حوار مع الله... ولذلك يستخدم درويش في هذه المرحلة رمز الصلاة في بستان جتسماني قبل العشاء الأخير... وصلاة يسوع على الصليب... وهاكم نموذجين : -

«الهي الهي لماذا تخليت عني؟ لماذا تزوجت مريم؟ (مريم هنا هي رمز لاسرائيل)
لماذا وعدت الجنود بكرمي الوحيد – لماذا ؟
أنا الأرملة. أنا بنت هذا السكون. أنا بنت لفظتك المهملة، لماذا تخليت عني؟
الهي، إلهي لماذا تزوجت مريم؟
تنزلت في ؟؟؟؟ وانزلت شعبين من سنبلة،
وزوجتني فكرة، فامتثلت، امتثلت تماماً لحكمتك المقبلة؟
أطلقتني؟ أم ذهبت لتشفي سواي / عدوي من المقصلة؟
أمن حق مَن هي مثلي أن تطلب الله زوجاً . . .
وأن تسأله إلهي . . .إلهي. . .لماذا تخليت عني،
لماذا تزوجتني يا الهي، لماذا. . .لماذا تزوجت مريم؟ [٣٢]

«يطول العشاء الأخير، تطول وصايا العشاء الأخير، أبانا الذي معنا كن رحيماً بنا، وانتظرنا قليلاً، ابانا !
ولا تبعد الكأس عنا. تمهل لنسأل أكثر مما سألنا . . .» [٣٣]

في هذه المرحلة لم يعد يسوع الثائر الذي يبحث عن الموت، بل الإبن الذي يريد فسحة أخرى للحياة... في هذه الفترة لم تعد حبوب السنبلة التي تموت تملأ الأرض سنابل هي ما يهم، بل على العكس ... في هذه المرحلة ينتقل درويش من لاهوت يقدس الموت والشهادة إلى لاهوت يقدس الحياة...

في هذه الفترة قبل الإنتفاضة الأولى، نرى درويش حذر من الخطابات التي تمجد الضحية:

« يحبونني ميتاً ليقولوا : لقد كان منا، وكان لنا . . . » [٣٤]

وفي هذه المرحلة أيضاً ينشد:

« على هذه الأرض ما يستحق الحياة. . . » [٣٥]

٣. المرحلة الثالثة:

أما المرحلة الثالثة في فكر درويش فجاءت مع أوسلو... وكما هو معروف كان درويش مثله مثل إدوارد سعيد ضد اتفاقية أوسلو...

في هذه الفترة تكثر التشابيه المأخوذة من سفر التكوين... ففي أوسلو يرى درويش محاولة لمساواة قايين بهابيل، القاتل بالضحية... [٣٦] كما ويرى فيها محاولة للتضحية بالذات كما ضمن إبراهيم بابنه (اسماعيل) [٣٧]

٤. المرحلة الرابعة:

أما المرحلة الرابعة والأخيرة في حياة درويشٍ فتبدأ حوالي سنة ١٩٩٩. السياق هنا تغير... السياق الشخصي لدرويش تغير كثيراً.

محمود أدخل المستشفى في باريس في عملية للقلب المفتوح... هناك هو معلق بين الموت والحياة... بين العدم والوجود، وهناك صراع بين الجسد والروح. درويش مقتنع أن ساعته لم تأت بعد [٣٨] كما لم يحن وقت الحصاد ولا وقت الدينونة.

أمام تجربة الموت هذه يصارع درويش ليفهم معنى الحياة وليسبر غورها فنراه في حيرة هل يتبع سليمان الحكيم في حكمته أم يؤمن بالناصري وبقيامته وهنا يختار درويش سليمان ... فسليمان الملك والحكيم والشاعر عرف المجد، مجد هذا العالم، كما عرفه درويش نفسه ولكنه أمر في النهاية أن كل شيء باطل...

في هذه الفترة نرى محمود درويش متعلق بسفر الجامعة بل نراه يحاول أن يقلد سليمان في سفره، كما نراه يجد سهولة بأن يشبه حاله بسليمان، ولكنه يجد صعوبة أمام هول الموت أن يشبه نفسه بالمسيح،
وفي ذلك كله يقول [٣٩] :

وانتظر
ولداً سيحمل عنك روحك .
فالخلود هو التناسل في الوجود .
وكل شيء باطل أو زائل،
أو زائل أو باطل .
من أنا ؟
أنشيد الأناشيد
أم حكمة الجامعة؟
وكلانا أنا . . .
وأنا شاعر
وملك
وحكيم على حافة البئر
لا غيمة في يدي
ولا أحد عشر كوكباً
على معبدي
ضاق بي جسدي
ضاق بي أبدي
وغدي
جالس مثل تاج الغبار
على مقعدي

باطلُ، باطل الأباطيل . . . باطل
كل شيء على البسيطة زائل

الرياح شمالية
والرياح جنوبية
تشرق الشمس من ذاتها
تغرب الشمس في ذاتها
لا جديد، إذا
والزمن

كان أمس،
سدى في سدى.
الهياكل عالية
والسنابل عالية
والسماء إذا انخفضت مطرت
والبلاد إذا ارتفعت أقفزت
كل شيءٍ اذا زاد عن حده
صار يوماً إلى ضده.
والحياة على الأرض ظل
لماذا لا نرى...

باطلُ، باطل الأباطيل ...باطل
كل شيء على البسيطة زائل
١٤٠٠ مركبة
١٢٠٠٠ فرس
تحمل اسمي المذهّب من
زمن نحو آخر ...
عشت كما لم يعش شاعر
ملكاً وحكيماً ...
هرمت، سئمت من المجد
لا شيءٍ ينقصني
ألهذا إذاً
كلما زاد علمي
تعاظم همّي؟
فما أورشليم وما العرش؟
لا شيء يبقى على حاله
للولادة وقت
وللموت وقت
وللصمت وقت
وللنطق وقت

وللحرب وقت
وللصلح وقت
وللوقت وقت
ولا شيء يبقى على حاله...
كل نهر سيشربه البحر
والبحر ليس بملآن،
والموت ليس بملآن
لا شيء يبقى على حاله
كل حي يسير الى الموت
والموت ليس بملآن
لا شيء يبقى سوى اسمي المَذهّب

بعدي :
«سليمانَ كان»...
فماذا سيفعل موتى بأسمائهم
هل يضيء الذهب
ظلمتي الشاسعة
أم نشيد الأناشيد
والجامعة؟

باطلُ، باطل الأباطيل ...باطل
كل شيء على البسيطة زائل
«ومثلما سار المسيح على البحيرة سرت في رؤياي. لكنني نزلت عن الصليب لأنني أخشى العلو ولا أبشر بالقيامة...» (٤٠)

درويش لا يهاب العلو بل الموت ... وعنده صعوبة أن يؤمن بالقيامة ... ولكن بدون قيامة تعج الحياة عبثاً ... درويش يكتشف ما يبقى للإنسان أمام هول الموت فينهي جداريته بالقول :

« وهذا الاسم لي
ولأصدقائي ، أينما كانوا، ولي
جسدي المؤقت، حاضراً أم غائباً ...

مترانِ من هذا التراب سيكفينا الآن
لي متر و٧٥ سنتمتراً . . .
والباقي لزهر فوضوي اللون ،
يشربني على مهل ، ولي
ما كان لي أمسي ، وما سيكون لي
عندي البعيد ، وعودة الروح الشريد
كأن شيئاً لم يكن
وكأن شيئاً لم يكن
جرح طفيف في ذراع الحاضر العبثي
والتاريخ يسخر من ضحاياه
ومن أبطاله . . .
يُلقي عليهم نظرهُ ويَمُر . . .
هذا البحر لي،
هذا الهواء الرطب لي
واسمي . . .
وان أخطأت لفظ اسمي على التابوت . . .
لي.
أما أنا . . . وقد امتلأت
بكل أسباب الرحيل . . .
فلست لي
أنا لست لي
أنا لست لي» [٤١]

أمام هول الموت يعترف درويش بأنه لا يملك نفسه... ولا يسيطر على مصيره...
درويش يعترف بأننا لسنا ملك أنفسنا... وفي هذه حكمة عظيمة... من يقرأ درويش سيكتشف أنه ملم بالعهد القديم كما وبالأناجيل ... ولكن يبدو لي أن درويش لم يتعرف يوماً على بولس... لذلك لا نجد أي اقتباس لبولس عند درويش...
فبولس اختبر بعضاً مما اختبره درويش، وأدرك أننا إن عشنا فلا نعيش لذاتنا... ولكنه أضاف ببعده الإيماني :

« فإن عشنا وإن متنا . . . فللرب نحن.
نحن لسنا لذواتنا . . . أنا لست لي . . .
هنا يقف درويش ولا يستطيع أن يكمل...

أما بولس فيكمل
. . . أنا لست لي . . .للرب نحن . . .

ولكن درويش لم يقف عند جداريته لعام ١٩٩٩ - بل في السنين الثماني الأخيرة بقي يفكر في لغز الحياة والموت... وترى هذا الفكر جلياً في ديوانه الأخير كزهر اللوز أو أبعد... درويش لم يعد يحلم بقضايا آلامه الكبيرة، بل راح يدرك معنى الحياة في التفاصيل الصغيرة ...

« قيل قوي هو الحب كالموت !
قلت : ولكن شهوتنا للحياة
ولو خذلتنا البراهين ، أقوى الحب والموت /
فلننه طقس جنازتنا كي نشارك جيراننا في الغناء
الحياة بديهية . . .وحقيقية كالهباء » [٤٢]

في سنيّه الأخيرة يرى درويش نفسه على جسرٍ يحيط به ضباب كثيف... فهو كشعب إسرائيل سيقطع نهر الأردن ... في منفى الجسر إلى أرض الميعاد [٤٣]

في أيامه الأخيرة وهو على الجسر يرى درويش بعيني الإيمان ما لم يكن يراه سابقاً فيقرّ:

« أن كل مكان بعيد عن الله أو أرضه هو منفى » [٤٤]
«وأن في عالم لا سماء له ، تصبح الأرضُ هاوية . . .
واصرخ لتسمع نفسك
واصرخ لتعلم أنك ما زلت حياً وحياً
وأن الحياة على هذه الأرض ممكنة
فاخترع أملاً للكلام
ابتكر جهة أو سراباً
يطيل الرجاء،
وغنّ ، فإن الجماليّ حرية /
أقول : الحياة التي لا تُعرّف إلا
بضد الموت . . .ليست حياة [٤٥]

كانت هذه إحدى قصائد درويش الأخيرة...
من يقرأ درويش من بدايته إلى نهايته سيراه إنساناً عاش في الكتاب المقدس... لم يكن هذا الكتاب كتاباً عابراً في حياته، بل منه استمد شاعرنا وحيه وإلهامه في كل محطة من محطاته ومات على رجاء الحياة.

الكتاب المقدس في لاهوت
القس نعيم عتيق

إنه لمن دواعي سروري وفرحي أن أقوم بمحاولة متواضعة لدراسة استخدام القس د. والأخ الزميل نعيم عتيق للكتاب المقدس في كتابه الذي صدر باللغة الإنجليزية.

«العدل والعدل فقط» هو عنوان كتابه الذي يبحث في لاهوت التحرر الفلسطيني. العدل والعدل فقط هو ما أبغيه من خلال هذه الدراسة فلا أطمع من خلال تقيمي هذا سوى أن أكون عادلاً مع الكتاب والكاتب، ومع نفسي ومع السامع. وفي البداية لا بد من إبداء ملاحظة قصيرة.

إذ لن أشمل في بحثي جميع الاقتباسات الكتابية التي وردت في الكتاب، ولن أمعن النظر في تلك الآيات الصغيرة الجميلة التي زينت رؤوس الفصول كأعلام شامخات، بل سأقتصر دراستي على استخدام الكتاب المقدس في الفصلين الرابع والخامس، وعلى مفهومه للكتاب المقدس والعدالة الإلهية. فهذان الفصلان اللذان يعدان نظرة الكاتب الفلسطينية، هما بحق محور الكتاب وقلبه النابض وفيهما يضع الكاتب الأساس اللاهوتي الإنجيلي لكتابه بأكمله. لهذا سأقصر بحثي على ثلاثة أقسام رئيسة هي:

- **معضلة تفسير الكتاب المقدس، كما يراها الكاتب وكما يعيشها كل فلسطيني.**
- **مفهوم الكتاب المقدس الذي يطرحه الكاتب في كتابه.**
- **تطبيق تفسير هذا المفهوم في الكتاب.**

معضلة تفسير الكتاب المقدس على خلفية الواقع الذي يعيشه الكاتب

يقول الكاتب:
الكتاب المقدس وعدالة الله هما الموضوعان الرئيسيان الأكثر أهمية للمسيحيين الفلسطينيين. وإنهما موضوعان مصيريان لحياتهم، موضوعان فرضهما عليهم واقعهم السياسي المعاش فإقامه الدولة العبرية واختيار إسرائيل كاسم لها خلق عند المسيحيين بشكل عام وعند المسيحيين الفلسطينيين خاصة مشكلة في قراءتهم للكتاب المقدس. إذ افاق هؤلاء المسيحيون فجأة ليروا كتابهم الحبيب وقد راح يعبث به العديد من إخوتهم الأصوليين، والكثيرون من أعدائهم السياسيين. وفوجئوا بالكتاب المقدس الذي طالما كان مصدر عزاء لهم، فوجئوا به يتحول بغتة إلى كتاب يقلقهم ويربكهم. بل ويبرر الظلم الذي لحق بهم ويجمل الجريمة التي ارتكبت بحقهم.

وبين ليلة وضحاها أصبح الكتاب القريب لنفوسهم كتابا بعيدا عن قلوبهم. وأضحى الكتاب المألوف لآذانهم كتاباً غريباً على مسامعهم. أجل إن إقامة دولة اسرائيل وربطها بنبوءات العهد القديم، أدخلت قدرا لا بأس به من الجفاء في علاقة المسيحيين الفلسطينيين بالعهد القديم لا بل قدراً من العداوة أيضاً.

هذا هو الواقع كما اختبره القس نعيم عتيق كونه مسيحياً وفي نفس الوقت ابنا لفلسطين. ويقول الكاتب بأن اللاهوت السائد في ذلك الحين لم يكن قادراً على الإجابة علي أسئلة المسيحيهن الفلسطينيين. ولم يكن مستعدا لمجابهة الاستخدام السياسي للعهد القديم وادعاءات الأصوليين التي تختص بإسرائيل. فحتى ذلك الحين رأى المسيحيون الشرقيون في العهد القديم شهادة مسبقة عن شخص المسيح. وكان الأسلوب الرمزي هو الأسلوب المتبع لتفسير الآيات والقصص والأناشيد. وكان الكتاب المقدس حتى تلك اللحظة كتابا روحياً، لكنه أمسى بين ليلة وضحاها كتاباً ذا استخدامات صهيونية وتطبيقات سياسية.

أسئلة جديدة تتعلق بطبيعة الله راحت تقلق الكثيرين:

- **هل يعقل أن يكون الإله المخلص والمحب للبشر الهاً عنصرياً ومنحازاً، إلهاً يفضل قوماً على قوم ويميز جنساً على جنس؟**
- **هل يمكن أن يكون الإله الكلي العدالة إلها ظالماً مستبداً أو سفاحاً؟**

هذا التحول في تفسير الكتاب المقدس كان التحدي الذي واجه المسيحيين في فلسطين. ولمجابهة هذا التحدي يدعو الكانون نعيم عتيق إلى إيجاد لاهوت فلسطيني، يكون لاهوتاً كتابياً، تحررياً، محلياً ووفيا لبشارة الإنجيل.

مفهوم الكتاب المقدس كما يستعرضه الكاتب في كتابه

في استعراضه لمفهوم الكتاب المقدس يكتب القس عتيق بأن الكتاب المقدس قد تعرض وعبر تاريخ صياغته الطويل إلى تطور كبير. فهناك كتّاب كانوا ذوي أفق محدود صغير، كتّاب رأوا في الله إلهاً قبلياً وعنصرياً لا يحب إلا إسرائيل. وهناك كتّاب آخرون رأوا في الله الهاً ذا قلب كبير، يهتم بالإسرائيليين وغير الإسرائيليين، الهاً يهتم بالعالم أجمع وبالشعوب قاطبة. فرؤية الإنسان لله تطورت عبر التاريخ وتطورت عبر صفحات الكتاب المقدس لتصل إلى قمة تطورها في شخص المسيح. فالمسيح هو الذي وهبنا الصوره الناضجة الصحيحة والمتطورة لطبيعة الله. لذلك يصبح المسيح المقياس والمعيار لتفسير الكتاب المقدس الصحيح. وكما كتب القس عتيق: فإن كلمة الله المتجسدة، هي التي تفسر لنا كلمة الله المكتوبة، أي إن معرفة الله ومحبته كما ظهرت في حياة وموت وقيامة المسيح هي مقياس قراءتنا للعهد القديم.

قد يُخال لنا للوهلة الأولى بأن الكاتب قد رجع إلى الطريقة التقليدية لتفسير العهد القديم، تلك الطريقة التي قال عنها إنها ليست في مستوى التحدي المطروح.

ولكن قد يتسائل البعض: ألا يرجع القس عتيق بمقياسه هذا إلى ذلك المقياس التقليدي، الذي كتب عنه بأنه لم يعد يفي بالمكتوب وأنه لم يعد بمستوى التحدي المطروح، ألا يرجع بذلك إلى الرمزية في تفسيره للعهد القديم؟

ذلك ما يخيل المرء في الوهلة الأولى، خصوصاً وأن الكاتب لا يشرح بالتفصيل ما يعنيه بمعرفة ومحبة الله كما أظهرت في حياة وموت وقيامة المسيح. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن موت وقيامة المسيح لا تحظى من الكاتب بالقسط الوافي من الشرح والتفسير. فلموت المسيح وقيامته مدلول تحرري عميق لا بد من الكشف عنه وتوضيحه بصورة أوفى وأوسع وأشمل.

لكن أهمية المسيح الحقيقية للاهوت التحرر - وكما يراها الكاتب - تكمن في كون المسيح تتمة وقمة للخط النبوي في العهد القديم. فوفق مفهوم الكاتب هناك ثلاثة خطوط لاهوتيه رئيسية في العهد القديم. الخط الأول هو الخط التوراتي الروحاني الممثل في أسفار موسى الخمسة وفي تدين الفريسيين والحسيديم. والخط الثاني هو الخط القومي والممثل في أسفار يشوع ،والقضاه ، وصموئيل والملوك والذي وجد تعبيراً له في حركة المكابين والغيورين. وأما الخط الثالث فهو خط الأنبياء والذي يحتوي على الصورة الشمولية لله والإنسان. فالمسيح أثبت من خلال تعاليمه وممارسته ووقوفه في وجه الفريسيين من جهة والغيورين من جهة أخرى أنه تتمة وقمة الخط النبوي.

هذا الخط النبوي مهم للكاتب (حوالي ثلث الإقتباسات في الكتاب مأخوذ من أسفار الأنبياء)، وللفلسطينيين المسيحيين:

أولا: أنه يحوي صورة شاملة وكاملة عن الله وعن علاقته بالعالم الإنساني.
ثانيا: أنه يوضح موقف الله الحاسم من الظالمين والمظلومين على حد السواء.
وبتركيزه على الخط النبوي هذا استطاع الكاتب أن يتجاوز الفهم الضيق لكل من العهد القديم وشخصية المسيح، واستطاع أن يكسبهما بعداً سياسياً تحررياً يجابه به التفسيرات السياسية العنصرية للعهد القديم من جهة والفهم الروحي والرؤيا الضيقه لشخصية المسيح من جهة أخرى.

هذا الخط النبوي الذي وجدت تتمته وقمته في شخص المسيح هو برأي الكاتب المعيار والمقياس التفسيري وهو محور وجوهر الكتاب المقدس، فبه تقاس نصوص الكتاب المقدس ومنه تستمد سلطتها ومنه تكتسب قيمتها الحقيقية. فما يتماشى مع هذا الخط هو بالحقيقة لب كلمة الله المتطورة والناضجة وأما ما تبقى فقشور.

تطبيق هذا المفهوم في الكتاب

بمقياسه هذا حاول الكاتب تفسير نصوص ستة من الكتاب المقدس، أورد ثلاثة منها كأمثلة سلبية، والثلاثة الأخرى كأمثلة إيجابية.

الأمثلة الثلاثة السلبية مستقاة من أسفار يشوع وصموئيل والملوك. فهنالك أولا قصة احتلال يشوع لأريحا، ثم قصة اليشع وصبية بيت إيل، وأخيرا قصة شاوؤل الملك وحربه ضد «عماليق». هذه القصص الثلاث تبين النظرة الضيقة العنصرية والمتطرفة لله. فها هو يشوع يأمر شعبه بألا يتهانوا مع سكان أريحا، وأن يقتلوا بحد السيف كل من فيها: من رجل وامرأة من طفل وشيخ بل من البقر والغنم والحمير. وها هو اليشع يلعن صبية بيت إيل لأنهم سخروا منه ونعتوه بالأقرع فتخرج دابتان وتفترس من الصبية اثنين وأربعين ولداً. وها هو الله يعاقب شاوؤل الملك لأنه خالف أمره وعفا عن خيار الغنم والبقر والخراف وكان مطلوبا منه أن يقتل كل سكان عماليق وكل حلالهم وأغنامهم وأبقارهم.

هذه القصص قرأها الكاتب قراءة حرفية ولم يحاول الاستعانة بنتائج اللاهوت التاريخي النقدي للكتاب المقدس لفهمها، وأظنه فعل كذلك بقصد أن يفسرها تفسيرا رمزيا ، وحاول أن يفهمها كما هي فرفضها، ورفضها لأنها قدمت له صورة ناقصه، ومشوهه عن الله. فتصور الله كطاغية مستبد لا تعرف الرحمة طريقها إلى قلبه، تصوره كإله عنصري قبلي منتقم لا ينسى ما عمله عماليق باسرائيل. إنه إله يهتم بالأرض أكثر من اهتمامه بالإنسان، ويحب الحرب أكثر من حبه للسلم، بل هو إله عصبي المزاج لا يحتمل مزاح الأطفال، فلا يهدأ له بال إلا بعد أن تفترس الدببه اثنين وأربعين منهم.

أمام هذه النتائج يواجه الكاتب نفس السؤال الذي واجه اللاهوتي ماركيون في القرن الثاني:- كيف يعقل أن يكون إله العهد القديم هذا هو نفس الإله الذي ظهر في المسيح يسوع؟؟؟

وما الفائدة من وجود هذه القصص في الكتاب المقدس؟ أليس من الأفضل نزعها، حتى لا تبقى ذريعة للمتطرفين والأصوليين؟ لمحاربة الكتاب المقدس، أم علينا تجاهلها؟

يحاول الكاتب أن يتهرب من هذه الأسئلة الصعبة المحيّرة ويقول: إن لهذه القصص دوراً تعليمياً، إذ إنها تعلمنا كيف لا يمكن لله أن يكون؟ ولكن هل تشفي مثل هذه الإجابة غليل الإنسان المتلهف للإجابة؟؟

أما الأمثلة الثلاثة الإيجابية فاثنتان منها مستقاة أيضاً من سفر الملوك، وتلك هي قصة كرم نابوت اليزرعيليّ (الملوك ٢١)، وقصة مواجهة النبي ميخا بن يملة للأنبياء الكذبة زمن الملك آخاب (الملوك ٢٢)، أما المثال الثالث فمأخوذ من سفر المزامير وهو صلاة لاجئ إلى الله.

المثال الأول:
يصور ملكا قويا اشتهى كرم جاره، ولما لم يرض جاره الفقير أن يبيعه كرمه، اغتصبه منه بعد أن قتله. هذا المثل نموذج لمأساة الفلسطينيين، مثال يصور أرضاً اغتصبت من يد أصحابها من قبل ملك بيده مفتاح القوة والسلطة والقانون.

المثال الثاني:
يصور نفس الملك يجمع من حوله مئات الأنبياء الكذبة الذين يهمسون بأذنيه بما يريد سماعه فيباركون له حربه ضد أرام ويبشرونه بالنصر، بعكس النبي ميخا الذي يحذره من مغبة خوض هذه الحرب وينبهه بأن العاقبة ستكون وخيمة. هذا المثل نموذج لسياسة الدول التي لا تعير اهتماما إلا لمصالحها ولا تسمع صوتا إلا أصوات شهواتها ورغباتها، وتضرب عرض الحائط بأصوات النقد والمعارضة الموجهة نحوها .

هذان المثلان يقرؤهما الكاتب على ضوء خلفيتهما التاريخية السياسية ومن ثم يحاول استعمالهما كنموذج يطبق على كل وضع شبيه بهما، ولذا يطبقهما على القضية الفلسطينية محاولا استخلاص العبر منهما وتوضيح موقف الله الواضح في الظلم. فالله كما أظهر نفسه في هذه الأمثلة - ما هو إلا إله يفضل الحق على الأرض والعدالة على البطش والتجبر. إنه إله تهمه حقوق الإنسان الضعيف ويهمه أن يحافظ على حياته وممتلكاته. إنه إله يحذّر من الإصغاء لصوت المطامع الشخصيه ولذوي القوة، إله يفضل السلام على الحرب والاستقرار على التوسع.

أما المثال الثالث:
فيرى فيه الكاتب نموذجاً لموقف الإنسان المظلوم من الله. إنه صلاة إنسان مضطهد إلى إله العدل وفيه يرى الكاتب صدى لصرخات اللاجئين إلى الله في كل الأرض. إنها صلوات تمد المظلومين بشعلة من الثقة بالله وبقبس من الرجاء. وفي الختام تبنى بعض أسئلة ننتظر الإجابة عليها:-

الأمثلة الخمسة الأولى التي يعرفها القس عتيق في كتابه مستقاة من نفس المصدر اللاهوتي، أي من أسفار يشوع إلى الملوك - تلك الأسفار التي قال عنها الكاتب إنها تمثل الخط القومي القبلي بالكتاب المقدس. فكيف يفسر الكاتب احتواء نفس المصدر الكتابي تصورات متناقضة عن الله؟ ولماذا لا يستخدم القس عتيق في شرحه للأمثلة السلبية، آخر ما توصل اليه لاهوت النقد التاريخي، ليفهم الخلفية التي كتبت فيها هذه القصص والهدف منها خصوصاً وأنها كتبت بعد السبي البابلي.

وفي الختام نقول إن الخطوة التي خطاها القس نعيم بكتابه هذا، إنما هي خطوة جريئة وكبيرة على درب لاهوت التحرر المحلي الطويل.

(نُشرت هذه المقالة في مجلة اللقاء، السنة الخامسة، عدد ثالث، ١٩٩٠م، ص. ١٢٣-١٣٠)

مفهوم العدل والسلام
في اللاهوت المسيحي الحديث

إن موضوع العدل والسلام في اللاهوت المسيحي الحديث لصعب وشائك وعسير. فما كتب عن العدل لا يحصى وما قيل في السلام لا يعد. والقضايا اللاهوتية التي يثيرها العدل والسلام لكثيرة ومتشابكة ولن نبحث فيها جميعها. بل سنركز الأنظار في هذه المحاضرة على ذلك الجزء من اللاهوت المعاصر الذي يبحث في مفهوم العدل والسلام على ضوء الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الحاضر.

هذا الموضوع يعالجه اللاهوتيون ضمن علم الأخلاقيات المسيحية الاجتماعية والسياسية. إذ يجمع علماء اللاهوت على أنه من المستحيل للإنسان المسيحي أن يأخذ دور المتفرج حيال قضايا الاقتصاد والسياسة. وأنه من غير الممكن أن تقف الكنيسة مكتوفة الأيدي حيال ما يجري في المجتمع والدولة. إذ ليس الإيمان المسيحي إيمانا انزوائياً وانطوائياً. بل هو إيمان مفكر. وداع فعال اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً.

فللكنيسة واجب تجاه المجتمع وللمؤمن مسؤولية تجاه البشرية. فإن فشلوا في التأثير بها فشلوا بإيمانهم وإن نجحوا كانوا بالحقيقة ملح الأرض ونور العالم.

إن المتتبع للمنشورات والوثائق والمؤتمرات اللاهوتية المعاصرة. لا بد وأن يلاحظ الأمور التالية:

١) إن موضوع العدل والسلام هو موضوع العقد التاسع لهذا القرن. فما من وثيقة لاهوتية صدرت إبان الثمانينات إلا وعالجت هذا الموضوع بتوسع وتعمق. العدل والسلام هو بالحق موضوع الساعة في الكنيسة.

٢) موضوع العدل والسلام هو موضوع مسكوني يحظى باهتمام جميع الكنائيس كاثوليكية وأورثوذكسية وأسقفية. مثودستية ومصلحة. سواء أكانت هذه الكنائس شرقية أم غربية. أو وجدت في الجزء الشمالي أو الجنوبي من الكرة الأرضية.

٣) مواقف الكنائس المختلفة من قضية العدل والسلام لا تحددها الهوية الطائفية بقدر ما يحددها المحيط والواقع المعاش فعلى سبيل المثال: قد يختلف لاهوتي كاثوليكي أفريقي مع لاهوتي كاثوليكي ألماني حول قضية معينة من قضايا العدل والسلام بينما يتفق مع لاهوتي أفريقي لوثري حول نفس القضية.

٤) هناك توجه عام في الكنائيس المختلفة لتبني مواقف عملية من قضية العدل والسلام وعدم الإكتفاء بإصدار البيانات النظرية. وتراعي هذه الكنائس بألا تكون المواقف المتبناة خيالية وفوقية، بل حازمة وجريئة قابلة للترجمة على الواقع المعاش.

وعليه فإننا ستبحث في هذه المحاضرة في القضايا الآتية:
أولا : الأسس اللاهوتية لمفهوم العدل والسلام
ثانيا: مفهوم العدل والسلام للاهوتيي الدول الصناعية
ثالثا: مفهوم العدل والسلام للاهوتيي الدول النامية

أولاً: الأسس اللاهوتية لمفهوم العدل والسلام

لا نريد في هذا المجال أن نبحث عن مفهوم العدل والسلام في العهدين القديم والجديد، فقد سبق وعالج اثنان من اللاهوتيين القديرين هذا الموضوع. ولكننا سندرس وباختصار خمسة من الأسس اللاهوتية العقائدية والتي تشكل الأعمدة الخمسة للاهوت العدل والسلام.

١. العدل والسلام في الخلق

تقوم عقيدة الخلق على أن الله الواحد الأزلي قد خلق في البدء السموات والأرض، الكون وكل ما فيه [١]. وقد اصطبغت هذه المخلوقات جميعها، سواء أكانت نباتاً أم جماداً، إنساناً أم حيواناً، بصبغة واحدة مردها إلى اليد المبدعة الواحدة. فخيم على الخليقة كلها سلام الوحدة رغم التعددية وسلام الإنسجام رغم الاختلاف[٢].

وإذا ما تمعنا ملياً في خلق الإنسان، نرى الله يخلق الإنسان على صورته ومثاله. فالإنسان كل إنسان إنما خلق على صورة الله [٣] الأسود مثله مثل الأبيض يحمل صورة الله، الأشقر كالأصفر خلق على مثال الله.

ويؤكد الكتاب المقدس أن الله قد صنع من دم واحد كل أمة من الناس [٤]. فحتى الشعوب المختلفة والأمم المتعددة كلها لها أصل واحد ومرد واحد هو الله الواحد. فما من فرق بين أوروبي وأفريقي بين أسترالي أو آسيوي، لا فرق في الكرامة بين شعب وآخر أو جنس وآخر فإن لهم جميعهم أمل واحد. فلا مكان في الخلق للعنصرية، لا مكان للتفرقة الجنسية، لا مجال للطبقية، وما يفعله البعض ما هو إلا محاولة لتشويش الإنسجام في الطبيعة ولتعكير صفو السلام في الخليقة، وما هو إلا محاولة للمساس بصورة الله في الإنسان - وهذا ما نسميه بالخطيئة.

إذاً فلقد أرسى الله قواعد العدل والسلام منذ البدء، بإبداعه الكون بريشة واحدة وبخلقه الإنسان على صورة واحدة، وبصنعه الأمم من دم واحد.

٢. العدل والسلام في الفداء

الإنسجام الذي خيم على الخليقة يوم تكوينها لم يدم طويلاً، إذ دخلت الخطية إلى العالم. كان الله قد أوكل الإنسان على جنته وكرمه ليعتني بها وليحافظ عليها [٥]، فراح هذا بدوره يستبد بها ويستعبدها... كانت السموات فرحة بعمل خالقها فأضحت بفضل صناعة الإنسان تئن تحت تأثير غازاته ودخانه. كانت البحار نشوة بنقاوة مياهها فأضحت تتوجع تحت تأثير فضلات الإنسان وكيماوياته. كانت الأرض سعيدة بخيراتها وكنوزها فأضحت بفعل الإنسان منهكة وتعبة تئن وتصرخ إلى باريها لينقذها من براثن الإنسان مستعبدها [٦].

أجل شوشت الخطية الانسجام القائم في الطبيعة والسلام السائد في الخليقة. الخطية شوهت أيضاً صورة الله في الإنسان. فأعلن هذا عصيانه على صانعه، أعلن استقلاله عن خالقه أراد أن يكون سيد أمره فراح يستبد بإخوته، فقتل قايين أخاه هابيل [٧]، وشوهت الخطية أيضا العلاقة بين الجماعات فتبلبل الناس في بابل وابتدأ عهد الخصومات[٨].

أجل صلبت الخطية العدل وقتلت السلم، ضجت الأرض وصرخ الإنسان يطلب الخلاص والنجدة. فجاء المسيح المخلص... جاء ليصالح الأرض بالسماء والإنسان بالله... جاء وبشر بنهاية زمن الحرب وبانبثاق ملكوت الله، ملكوت المحبة والغفران، ملكوت الفرح والإخاء، ملكوت العدل والسلام [٩] هذا السلاح الإلهي الذي ظهر في المسيح، لم يبق نظرية خيالية بعيدة عن الواقع، بل تجسد في الكنيسة الأولى. نتج عنه سلام بين مختلف المؤمنين من يهود ويونانيين [١٠]، نتج عنه عدالة اجتماعية واشتراكية مسيحية أعطت كل واحد حقه وكل حسب احتياجه [١١].

٣. العدل والسلام في الإفخارستيا

لم يبشر المسيح بالعدل والسلام كنظرية اجتماعية ولم يستغلها كدعاية انتخابية، بل أرسى دعائمها في سر الإفخارستيا. «خذوا كلوا هذا هو جسدي، اشربوا منها كلكم» [١٢]. اشربوا منها كلكم، أجل كلكم. فليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وأنثى، لأنكم جميعاً واحد في المسيح [١٣]. هنا على مائدة الرب تسقط جميع الحواجز الاجتماعية والعرقية، الطبقية والجنسية... هنا يتجسد العدل بين جمهور المؤمنين، ويسود السلام، سلام الله مع الإنسان، وسلام الإنسان مع أخيه الإنسان.

الإفخارستيا هي النواة التي بنى المسيح عليها الكنيسة، لذا فتحقيق العدل والسلام بين أبناء البشرية ليشارة من صُلب العقيدة المسيحية. سر الإفخارستيا هو نبع زاخر يزود الكنيسة يومياً بديناميكية تتغلب على كل الحواجز البشرية.

ولكن وأسفاه: هذا النبع الزاخر، أقامت عليه الكنائس حواجز الطائفية، فلم يعد بإستطاعة أبناء العائلة المسيحية الواحدة متعددة الطوائف من الإلتفاق حول مائدة الرب الواحدة.

إن بشارة الإفخارستيا التي حطمت بقوتها جميع الحواجز العرقية والاجتماعية، ستبقى واهية إن لم تتغلب أخيراً على حاجز الطائفية... وسيبقى صوت الكنيسة الداعي للعدل والسلام واهناً ضعيفاً إن لم تستطيع الكنيسة الجامعة من أن تجمع حول مائدة الرب جميع الطوائف بجو من العدل والإخاء والسلام.

٤. العدل والسلام في الثالوث

إن عقيدة الثالوث كما وردت في المجمعين المسكونيين الأوليين، نادت بالإيمان بإله واحد مثلث الأقانيم هو الآب والإبن والروح القدس. ولقد أكدت هذه المجامع حقائق ثلاثاً وهي: [١٤]

أ. أن الأقانيم الثلاثة متساوية في القدرة والمجد، واحدة في الجوهر، فالابن مساو للاب في الجوهر، والروح مسجود له وممجد مع الآب والابن، هكذا نتلو في قانون الإيمان.

ب. رغم هذه المساواة تمتاز الأقانيم بعضها عن بعض منذ الأزل والى الأبد، لكن ليس في الجوهر، بل في الأقنومة، فالابن نظراً إلى أقنومه مولود، أماالروح فمنبثق.

ج. رغم هذا الامتياز تشترك الأقانيم الثلاثة في الجوهر الإلهي الواحد وفي كل صفاته، فالابن والروح يشتركان في مجد الآب وحكمته وقدرته وقداسته، ويستحقان كل ما يستحقه من المجد والتسبيح والعبادة والكرامة.

لعمري إن عقيدة الثالوث هذه التي تؤكد على المساواة والامتياز والشركة بين الأقانيم لعمري إنها لأجمل صورة للمفهوم المسيحي عن العدل والسلام. فأي مثال أروع من هذه الأقانيم الثلاثة التي تتساوى رغم امتيازها وتتشارك في جوهرها وأعمالها؟ أي نظير لهذا السلام العجيب والإتحاد الوثيق والحب العميق الذي يخيم على مثلث الأقانيم؟

هنا في عقيدة الثالوث رسم الله صورة أزلية ولوحة أبدية لمفهومه الذاتي عن العدل والسلام. وكلما تأمل البشر بلوحة الثالوث هذه وتمعنوا بدقتها وإبداعها، وتأثروا بروعتها وجمالها، تقدموا في سعيهم وراء سلام يقوم رغم الامتياز، وعدل يؤسس على الشركة، ووحدة تتوج بالمحبة.

د. العدل والسلام في علم الأخرويات

العدل والسلام المبشر بهما في الكتاب المقدس يفوقان كل وصف وعقل (١٥)، ولا يمكن للإنسان أن يحققهما بالكامل في هذا العالم، بل سيبقيان وعداً للعالم الجديد الذي سيخلقه الله في الزمان الأخير. فلن يسود الكونَ العدلُ الكامل والسلام الشامل، حتى يقضي الله على الخطيئة في العالم الجديد[١٦].

رجالات الكتاب المقدس أشاروا إلى هذا العالم الجديد وتغنوا بالانتصار النهائي للعدل على الظلم والسلام على الحرب... أولئك نظروا إلى هذا العالم الجديد فرأوا

فيه الشعوب وهي تصهر سيوف الحرب لتصنع منها سككاً للحراثة. وتذيب رماح القتال لتصنع منها مناجل للحصاد [١٧]. إنه زمان لن تستخدم فيه هذه الأدوات للحرب والتسلح بل للاقتصاد والبناء والإعمار.

هذا الحلم وهذا الرجاء، لا يضعف من عزيمة المؤمن في الكفاح من أجل العدالة في هذا العالم. إنما يزيده إصراراً وعزماً على الاستمرار في الدرب الطويل لتحقيق الحد الأقصى من العدل والسلام في هذا العالم.

ثانياً: مفهوم العدل والسلام للاهوتيي الدول الصناعية [١٨]

يجمع اللاهوتيون اليوم على كافة اختلافات القومية والطائفية على أن العدل والسلام وجهان لعملة واحدة. فلا عدل مع غياب السلام، ولا سلام إذا غاب العدل [١٩].

رغم هذا الإجماع، هناك اختلاف في تقييم دور وأولية كل منهما. هذا الاختلاف في التقييم لا ينبع من خلافات طائفية، بل هو متأصل في الانتماء لمجتمعات وبيئات مختلفة لكل منها مشاكلها وواقعها وتفكيرها. يهتم لاهوتيو الدول الصناعية بالدرجة الأولى بالسلام ومن ثم بالعدل، أما لاهوتيو الدول النامية فيصبون اهتمامهم على العدل أولا ومن ثم على السلام [٢٠].

لاهوتيو الدول الصناعية يصطدمون بثلاث مشاكل رئيسية في مجتمعهم:
فهناك أولاً حقيقة انقسام الجزء الشمالي من الكرة الأرضية إلى معسكرين سياسيين وحلفين عسكريين وما ينتج عنه في سباق التسلح. وهناك ثانيا حقيقة امتلاك واقتناء وتصنيع الأسلحة النووية، وهناك مشكلة تلوث البيئه وما ينتج عنها من مشاكل باتت تهدد الطبيعة بأسرها.

أمام هذه المشاكل أجمعت كافة الوثائق الكنسية على أن العالم قد دخل بتقنية للذرة عصراً جديداً وتصنيعه للأسلحة النووية قد جعلت الكون في خطر لم يسبق له مثيل. فالطبيعة كلها أصبحت اليوم مهددة بالانقراض، والحضارة الإنسانية بأسرها أضحت على حافة الفناء [٢١]. وأمام هذا الواقع المؤلم، أعربت الكنائس عن رفضها التام لأي شكل من أشكال الحروب النووية وطالبوا الدول العظمى بإنهاء صناعة الأسلحة الذرية وإيقاف إجراء التجارب عليها وتفتيت المخزون الهائل منها. كما أكدت جميع الوثائق على استحالة تحقيق العدل والسلام عن طريق سياسات الردع المختلفة [٢٢]. وأشارت إلى أن شعوب الدول النامية هي التي تدفع ثمن سياسات الردع وسباق التسلح فتزيد بذلك فقرها واستعبادها وتعصبها، فتتسع بذلك الهوة ما بين الشمال والجنوب

ورغم هذا الإجماع يبقى سؤالان اثنان ينتظران قراراً عاجلاً من لاهوتيي الدول الصناعية وهما:

أ. هل هناك حرب عادلة؟ فان وجدت فما هي مقوماتها وأهدافها وأساليبها؟
ب. ما هو موقف اللاهوت من مذهب المسامحة؟ أهو خيالي، بعيد عن الواقع أم هو السبيل الوحيد لاحقاق العدل والسلام؟

ثالثاً: مفهوم العدل والسلام اللاهوتي في الدول النامية

مشاكل الدول النامية تختلف عن مشاكل الدول الصناعية. فبينما تعمل الدول الصناعية على المحافظة على حريتها والسلام القائم في ربوعها، تصرخ الدول النامية تسأل العدالة وتكافح من أجل نيل حريتها واستقلالها. أجل، العدالة، الحرية والاستقلال هي مطمح شعوب الدول النامية [٢٣]. فأي عدالة هذه أن ينفق سنوياً مبلغ خمسة وخمسين مليار دولار على الأسلحة بينما يعيش ثمانمائة مليون نسمة في فقر مدقع؟ أي عدالة هذه أن تتلف يومياً أطنان من المواد الغذائية للمحافظة على أسعارها، بينما يموت كل يوم أكثر من عشرة آلاف طفل نتيجة الجوع وسوء التغذية والمرض؟ أي عدالة هذه أن تبني أقلية صغيرة ثراءها على فقر الأغلبية الساحقة أبناء البشر؟

الدول النامية منهكة بعد أن سلبها الإستعمار خيراتها... إنها غارقة في بحر من ديون فرضها عليها نظام اقتصادي ظالم... إنها محتلة، مسلوبة أراضيها وثرواتها من قبل عصابات تتحكم برؤوس الأموال، مستعبدة شعوبها من قبل طغاة يملكون كل ما وجد من السلاح. هذه وباختصار مشاكل الدول النامية. هذا الواقع دفع لاهوتيي الدول النامية إلى تطوير لاهوت إنجيلي يتفاعل وهذا الواقع ويكون دافعاً لتحريرهم ونبراساً لكفاحهم من أجل العدل والسلام.

فنشأ في أمريكا اللاتينية لاهوت التحرير، وفي جنوب أفريقيا اللاهوت الأسود، وفي نهاية هذه المحاضرة ارتأيت أن نتأمل معاً في إحدى أهم وثائق اللاهوت الأسود ألا وهي وثيقة ال Kairos [٢٤]. كلمة Kairos يونانية الأصل وتعني اللحظة الإلهية الحاسمة. هذه الوثيقة كتبها ١٥١ لاهوتي من جنوب أفريقيا ينتمون لطوائف مختلفة وذلك في شهر أيلول ١٩٨٠ إبان الإنتفاضة الشجاعة لشعب جنوب أفريقيا الأسود.

في المقدمة تعرف الوثيقة نفسها على أنها قراءة مسيحية كتابية ولاهوتية للأزمة السياسية في جنوب أفريقيا. إنها تقييم ونقد للاهوت الحاضر الذي يفصل ما بين الكنيسة والسياسة وهي محاولة لابتكار لاهوت كتابي بديل، يكون له تأثير إيجابي على مستقبل البلاد في جنوب أفريقيا.

الوثيقة مقسمة إلى خمسة فصول: **والفصل الأول يحمل عنوان "ساعة الحق "**: ساعة الحق التي تتحدث عنها الوثيقة هي بلا شك الأزمة السياسية إبان الإنتفاضة السوداء سنة ١٩٨٥. هذه الانتفاضة هي ساعة الحق. فهي فرصة ثمينة لحكومة البياض لتعيد النظر في سياستها وهي فرصة ثمينة للكنيسة لتعيد التفكير في لاهوتها.

إنها ساعة الحق، وهي لحظة حاسمة عليها يتوقف مستقبل البلاد، فإما السلام وإما الدمار. في مثل هذه الساعة تميز الوثيقة ثلاثة أنماط مختلفة من اللاهوت. فهناك لاهوت الدولة، ولاهوت الكنيسة ولاهوت النبوة.

الفصل الثاني من الوثيقة يتحدث عن لاهوت الدولة:
ما تسميه الوثيقة بلاهوت الدولة، ما هو في الواقع إلا التبرير اللاهوتي الذي يستعمله النظام الأبيض في جنوب أفريقيا للحفاظ على الوضع القائم statusquo اللاهوت يبارك ظلم الدولة ويحكم على الفقراء بالخنوع والاستسلام. وتستعمل الدولة العنصرية الكتاب المقدس لقمع الانتفاضة السوداء. فكلما صمم السود على مقاومة الدولة، نراها تمد يدها إلى العهد الجديد لتقرأ عليهم «روميه ١٣ : ١ - ٧» لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة، لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين القائمة هي مرتبة من الله، حتى أنه من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة. هذه الآيات يساء استخدامها من قبل النظام العنصري فتقرأ من دون قرينتها وتستخدم في غير مكانها ولغير غرضها ودون أي تفكير أو تفسير.

إلى جانب الكتاب المقدس تستخدم حكومة البيض مقولة القانون والنظام لتقمع كل بادرة شعبية ثورية. وبينما يدعى هذا النظام أنه غيور على القانون، نرى هدفه الفعلي يتمثل في المحافظة على الوضع القائم. مثل هذا القانون لا يمكن للاهوت الأسود أن يقبله لأنه قانون عنصري منحاز، ونظامه نظام احتلال ظالم.

ويدعى النظام العنصري أن الله يقف في صفه، ولا يتوقف نظامه إلا على سياسة القنابل والأسلحة الرشاشة والبنادق. والإله الذي ينادي به النظام العنصري إله يثبت كراسي العظماء ويسحق الفقراء بالأقدام. بينما إله الكتاب المقدس الذي تغنت به العذراء ما هو إلا إله ينزل العظماء عن كراسيهم ويرفع المتضعين، يشبع الجياع خيرات ويصرف الأغنياء فارغين. هذا هو لاهوت الدولة.

أما الفصل الثالث فيعالج لاهوت الكنيسة:
لاهوت الكنيسة تعرّفه الوثيقة باختصار أنه ذلك اللاهوت الكنسي وخاصة الغربي الذي يدعي الحيادية حيال الأزمة ويعلن عن تفهّمه لحكومة البيض وتفهّمه لانتفاضة السود. أما قاموسه اللاهوتي لا يحوي إلا مصطلحات ثلاثة:

المصطلح الأول للاهوت الكنيسة هو المصالحة. المصالحة هي مفتاح حل الأزمة في اللاهوت الكنسي الذي يسأل السود دائماً: لماذا لا تجلسوا مع الحكومة وتتحدثوا وتتفاهموا وتتصالحوا؟ ولكن تتساءل الوثيقة: كيف يجلس اثنان معاً أحدهما مدجج بالسلاح والآخر مقموع أعزل؟ كيف يتفاهم العدل مع الظلم وكيف يتصالح النور مع الظلمة؟

ما من مصالحة - تقول الوثيقة - إلا بعد وضع حد للأنظمة الظالمة. وما من مصالحة دون إحقاق العدالة. وكل محاولة أخرى للمصالحة ما هي بالواقع إلا محاولة لإقناع

السود بالرضوخ والتسليم والخنوع. ما من مصالحة - تكرر الوثيقة - إلا وقد أظهرت حكومة البيض رغبة حقيقية في التوبة. فسلام الله هو ذلك السلام المبني على الحق والتوبة، على العدل والمحبة. أما سلام العالم فهو سلام الذي يضحي بالحق على مذبح المصالحة ويقدم العدل قرباناً للمحتل.

أما المصطلح الثاني في قاموس لاهوت الكنيسة فهو مصطلح العدل اللاهوتي الكنسي يتحدث كثيراً عن العدل، بل ويناشد حكومة البيض إحقاق العدالة للسود. والعدالة المنشودة هنا حسب رأي الوثيقة هي عدالة الاصلاحات. إنها العدالة التي تتصدق بها الأقلية البيضاء على الأغلبية السوداء.

أزمة جنوب أفريقيا - تقول الوثيقة - هي ليست أزمة أفراد بحاجة إلى وعظ وإرشاد، بل هي أزمة نظام ظالم، لن يتبدل إلا تحت الضغوط. فالعدالة الحقة، عدالة الله هي تغيير جذري بالنظام وهذا لن يحدث عن طريق الإصلاحات بل بالضغط من أسفل وبكل قوة ممكنة.

أما المصطلح الثالث في قاموس اللاهوت الكنسي فهو "اللاعنف". ما من بيان يصدر عن اللاهوت الكنسي إلا ويعلن رفضه للعنف وإدانته لكل أشكاله. مشكلة اللاهوت الكنسي هذا - تقول الوثيقة - أنه تأثر بقصد أو من غير قصد بالدعاية العالمية... تقول الوثيقة: «لقد قررت الحكومات ووسائل الإعلام تسمية ما يقوم به سكان مخيمات الـ Townships في كفاحهم من أجل الحرية من قذف للحجارة وإحراق للسيارات وأحياناً من قتل للعملاء، لقد قررت على تسميتها بالعنف، أما العنف المنظم، عنف المؤسسات والحكومات والدول، عنف الجنود والشرطة الواضح للعيان فلا يسمى عنفاً.

وتتساءل الوثيقة: إلى متى سيبقى اللاهوت الكنسي يتلاعب بالألفاظ؟ إلى متى سيتسلى بإطلاق المصطلحات؟ متى سيعود إلى رشده وسيرجع إلى نفسه؟ ليسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية دونما خوف أو مواربة أو تملق؟.

هذا لا يعني أن الوثيقة تدعو للعنف، إنما ترى فيها الطريق الأخير، الذي لا يمكن لمسيحي أن يسلكه إلا إذا أقفلت بوجهه جميع الطرق الأخرى. إنه أصغر الشرّين.

ويعيب اللاهوتيون السود على لاهوت الكنيسة افتقاده لتحليل ما يدور في المجتمع وجهله لآلية السياسة ومقوماتها. هذا الجهل تعزوه الوثيقة إلى أنماط التدين المسيحي التي سادت أوروبا في القرون الماضية ففصلت ما بين الله والعالم وجعلت من الديانة المسيحية رياضة روحية فردية بلا أبعاد اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، فخلقت بذلك بيتاً تقوقعياً رجعياً.

الفصل الرابع من وثيقة ال kairos يحمل عنواناً على طريق اللاهوت النبوي، أي أن اللاهوت المطلوب في الأزمة السياسية لجنوب أفريقيا هو لاهوت واضح، لا يخاف من أخذ القرارات ولا يخشى أن ينعت بأنه لاهوت منحاز.

الخطوة الأولى على طريق اللاهوت النبوي تكمن في التحليل الاجتماعي والسياسي للأزمة. إن مثل هذا التحليل سيظهر أن أزمة جنوب أفريقيا ليست أزمة عرقية بل إنها أزمة احتلال. فهناك حكومة تستفيد من الوضع القائم ولا تريد التخلي عنه ولو كلفها ذلك ملايين الأرواح. هذه الحكومة اعتادت أن تطلق بين الفينة والأخرى بالوناً من بالونات الإصلاح، الهدف منه إشغال الشعب عن المطالبة بتغيير جذري للنظام. هذه الحكومة تبني ثراءها على أكتاف الفقراء السود وتستغلهم كأيدي عامله رخيصة وتسلبهم أبسط حقوقهم السياسية والاجتماعية والتربوية.

هذا هو الواقع القائم - كما تراه الوثيقة - إنها حرب أهلية وثورة شعبية. لها طرفان طرف يحارب للمحافظة على الوضع القائم وطرف ثان يكافح من أجل قلب النظام القائم.

أمام هذه الحرب بين الطرفين، لا يقف الله موقف المتفرج الناظر. فإن إله الكتاب المقدس يرى ممارسات الاحتلال ويسمع تأوهات الجرحى والمضطهدين والسجناء فيتحرك ليخلص شعبه من العبودية السياسية والإجتماعية ويقوده إلى الحرية.

فالله يقف مع المضطهدين وقفة لا تراجع فيها، هذه الوقفة هي وقفة المسيح بعينها، إنها وقفة مع الفقراء والمتألمين والمضطهدين. هذه الوقفة تملأ قلوب المتألمين بالأمل بمد المضطهدين بالقوة اللازمة ليتابعوا سيرهم واثقين بعدالة قضيتهم.

في الفصل الخامس والأخير تحث الوثيقة الكنيسة على اتخاذ خطوات عملية واضحة فتمتنع من التعامل مع المحتل وتحدد موقفها من الإحتلال وتشترك في شتى أنواع الكفاح بما فيها العصيان المدني فتكون قائداً فكرياً وروحياً ومحركاً قوياً في كفاح الشعب من أجل العدالة والحرية.

هذه هي وثيقة ال Kairos التي كتبت إبان انتفاضة السود لشعب جنوب إفريقيا. فأي وثيقة يا ترى، سنكتب نحن الفلسطينيون المسيحيون في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ شعبنا؟ ما هي رسالتنا عن العدل والسلام لأبناء شعبنا في هذه الحقبة من انتفاضتنا؟

(نُشرت هذه المقالة في كتاب مؤتمر اللاهوت والكنيسة المحلية في الأرض المقدسة، مركز اللقاء، الدورة الثالثة، ١٩٨٩م، ص. ١٣٣-١٤٨)

حقوق الإنسان في المسيحية

لقد أضحى الحديث عن حقوق الإنسان موضوع الساعة، سواء على المستوى الدولي، أم على المستوى العربي وبالأخص على المستوى الفلسطيني، ونحن نمر اليوم بمرحلة انتقالية في تاريخ شعبنا، نأمل أن يطوى معها فصل اتسم بإهدار حقوق أبناء شعبنا واستنزاف طاقتهم بفعل المحتل الغاصب، ليبدأ فصل جديد نتنفس فيه أنسام الحرية ونسير في الطريق الذي يقود إلى بناء دولة ديمقراطية تعنى بحقوق الإنسان وتصونها. إن الأديان السماوية الثلاثة المدعوة للمشاركة في مرحلة البناء هذه، ليس عبر الخطب الرنانة والعظات العاطفية الجياشة التي يغازل بعضها مبادئ حقوق الإنسان ويترنم بها بينما يكفرها البعض الآخر. فالشعارات التي تبهر، ما هي إلا سراب لا يروي ظمأ أحد ولا يسد رمق أو يشفي غليل من يبحث عن الحقيقة.

وأرى أنه لزاماً عليّ في هذا المؤتمر، أن أبحث في موضوع (حقوق الإنسان في المسيحية) من جوانب أربعة، فأبحث أولاً في حقوق الإنسان والعقيدة المسيحية، لأنتقل ثانياً إلى معالجة حقوق الإنسان في تاريخ الكنيسة خاصة الحديث، لأحدث ثانياً عن حقوق الإنسان وتحديات الساعة، لأختم بالحديث عن حقوق الإنسان ومستقبل الكنيسة في الشرق الأوسط.

١. حقوق الإنسان والعقيدة المسيحية

ليس سراً أن مبادئ حقوق الإنسان ظهرت أول ما ظهرت في أوروبا في القرن السابع عشر في مجتمع كانت الديانة المسيحية أحد العوامل الرئيسية في صياغة حضارته وتراثه وفلسفته. لذلك نجد في العقائد المسيحية العديد من الأفكار التي مهدت لصياغة مبادئ حقوق الإنسان، أذكر منها ثلاثة:

أ. عقيدة الخلق:

في سفر التكوين في الإصحاح الأول نقرأ أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان على صورته ومثاله(عدد ٢٦+٢٧) ولا تشير كلمات الصورة والمثال إلى مكونات جسمية، بل إلى كون الإنسان مخلوقاً عاقلاً ناطقاً، حراً ومحباً. فالإنسان، كل إنسان، إما خلق على صورة الله بمعنى أنه مخلوق مميز وله كرامة، وهذه الكرامة مصدرها الله سبحانه وتعالى. في هذه الكرامة التي هي هبة الله للإنسان التي يشترك فيها البشر أجمعين، لا فضل في الكرامة لعربي على أعجمي، فالأسود كالأبيض، والصغير كالكبير كلهم يشتركون في الكرامة الواحدة.

الإنسان، كل إنسان، إنما خلق على صورة الله، لذا فله الحق من الله تعالى في العيش بحرية كما لو أن له قيمته ودوره ووزنه، ويؤكد الكتاب المقدس أن الله قد صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون وجه الأرض (أعمال ١٧: ٢٦)، فالكل جُبل من الجبلة عينها، أي أن هناك مساواة في الأصل بين البشر أجمعين، ولذلك لا مكان للتفرقة بين البشر. وعن هذا يكتب الرسول بولس:ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وأنثى، لأنكم واحد في المسيح يسوع (غلا ٢٨ : ٣) هذه المساواة وهذه الكرامة التي ميز بها الله الإنسان منذ الخلق هي الأصل الذي تتفرع منه حقوق الإنسان.

ب. السقوط في الخطيئة:

تقر المسيحية بأن الله قد خلق الإنسان كاملاً، ولكنه أغوي فسقط في الخطيئة ومن حينها تراه ميلاً للشر، تواقاً إلى التسلط، يحاول دائماً أن يضع نفسه في مكانة خالقه، وينزع إلى الإستئثار لنفسه بأكبر قدر من القوة، مادية أكانت أم معنوية، وكثيراً ما يسخدمها لسحق الضعيف و انتهاك كرامته. لذا تدعو الكنيسة لضرورة وجود مؤسسات لتنظيم علاقات الأفراد والجماعات بعضها ببعض، كي لا تصبح الحرية مطلقة تستبيح وتستغل الضعيف لصالح القوي. فالأفراد بحاجة إلى مؤسسات ودول ترعى شؤونهم. ولكن بما أن هذه المؤسسات والدول تدار من قبل أفراد لهم أيضاً ميل إلى الشر والتسلط، لذا وجب وضع حدود لسلطة هذه المؤسسات، وفصل سلطاتها عن بعضها البعض، كما وجب مراقبة أدائها، وبلورة حقوق تحمي الفرد من تسلط الدولة، يتسنى له أن يحتكم إليها وقت ما شاء ، وتكون له بمثابة مرجع ثابت يؤول إليه فيجد فيها ملجأ أميناً وحصناً مكيناً وعونا أكيداً. وما ينطبق على الدولة لا بد وأن ينطبق على الكنيسة أيضاً وعلى باقي المؤسسات الأخرى.

ج. عقيدة التجسد:

إن عقيدة التجسد، أي أن المسيح كلمة الله قد صار بشراً وأن عيسى ابن مريم، روح الله، قد أخذ جسداً، هي من صلب العقيدة المسيحية. وهذا يعني ان الله تأنس ليرفع الإنسانية من وحل الخطيئة إلى مرتبة البر والألوهية. أي أن المسيح بتجسده قد قدس الحياة الإنسانية وأعطاها بعداً روحياً وقيمة إلهية.

لذلك عندما سئل السيد المسيح عليه السلام عن أعظم وصيتين أجاب: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك، وتحب قريبك كنفسك. (لوقا ١٠ : ٢٧) أي أن محبة الله ومحبة الإنسان وجهان لعملة واحدة، وهذا ما أكده الرسول يوحنا (٥ : ٢٠-٢١) كتب: «إن قال أحد أني أحب الله وأبغض أخاه، فهو كاذب لأن من لا يحب أخاه الذي أبصره كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره». ثم يختم بقوله: إن من يحب الله يحب أخاه أيضاً. وعلى هذا المنوال نقول: إن من يحافظ على شريعة الله يحافظ على حقوق الإنسان، ومن ينتهك حقوق الإنسان إنما ينتهك حق الله. لذلك لا يجوز أن يكون هناك تضارب بين التدين والتحلي بالمبادئ الإنسانية، ولا يجوز أن يستغل الدين لقهر الإنسان، بغض النظر عن إنتمائاته القومية والدينية والجنسية والأيديولوجية، ولا يمكن استخدام اسم الله لمحاربة الإنسان أياً كان.

إن العبادة الحقيقية ليست التدين العقيم الذي يهتم بمظهر الإيمان تاركاً جوهره، بل إنها كما قال الأنبياء: الإهتمام بالضعيف والأرملة واليتيم والمضطهد وصون حقوقهم. وبهذا جعلت المسيحية من الإهتمام بحقوق الإنسان وصيانتها، عبادةً وتعبداً وتديناً.

٢. حقوق الإنسان وتاريخ الكنيسة

إذا تأمل الإنسان في العقيدة المسيحية رآها تفيض بإشارات تدعم مبادئ حقوق الإنسان. ولكن شتان ما بين العقيدة والتطبيق! ففي فترات معينة في تاريخ الكنيسة الغربية وخاصة في القرون الوسطى رأت الكنيسة الغربية في الدعوة لحقوق الإنسان خطراً يهدد مصالحها وخروجاً عن أعرافها.

يمكن القول أن المصلح مارتن لوثر كان أول من أثار قضية حقوق الإنسان، عندما أصر على حق الإنسان في قراءة الكتاب المقدس وتفسيره بعد أن كان حكراً على أفراد قلائل. كما ورفض تفضيل الكهنة وتقريبهم إلى الله وجعلهم وسطاء بين الله والناس العاديين. وعندما أصدرت الكنيسة حرماناً بحقه، رفض الإنصياع لأوامرها معتبراً هذا الحرمان تعدي على حرية ضميره، فكان أول من احتكم إلى الضمير لمواجهة استبداد الكنيسة وتسلطها، احتكم إلى العقل والمنطق في حواره مع خصومه. ولم يقف الأمر عند هذا المصلح، بل راحت الكنيسة في الغرب تحد من حرية الرأي والنقد وراحت تستخدم سياسة التكفير لقمع أية محاولة للإعراب عن التجديد والتحديث، ورأت في الاجتهاد خروجاً عن الأصالة، مما اضطر الفلاسفة في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى اللجوء إلى العلمانية والفلسفة والنهضة كردٍّ فعلٍ لإنفاق الكنيسة وتحجرها. إذ لم تستطيع الكنيسة في ذلك الوقت من استيعاب مبادئ حقوق الإنسان رغم أن لها جذور مسيحية، كما أسلفنا، لا بل رأت في هذه المبادئ أفكاراً دخيلة، غريبة، علمانية وغير دينية.

وبقي الحال هكذا حتى أواسط القرن الماضي وأوائل القرن الحالي عندما غيرت الكنائس سياستها، ورفضت سياسة التكفير والترهيب واعتمدت مبادئ حقوق الإنسان كأساس مهم لتحديد العلاقة بين المواطن والدولة وبين الإنسان وأخيه الإنسان.

وإذا وجد الدارس أن في تاريخ الكنيسة ثمة تطور نحو تقبلها لمبادئ حقوق الإنسان، نجد أنها غيرت من مواقفه من الرفض إلى القبول، فتجعله يتبنى هذه المبادئ وينادي بها.

٣. حقوق الإنسان وتحديات الحاضر

لم تسقط مبادئ حقوق الإنسان يوماً من السماء لتتلقفها أيدي الفلاسفة بل هي نتاج تاريخي لصراعات فكرية وعقائدية وثمرة لثورات إجتماعية وتغييرات إقتصادية وسياسية أيضاً، لذلك فمبادئ حقوق الإنسان هي نتيجة تطورات معينة حصلت، وما

زالت هذه المبادئ بحاجة إلى الكثير من التطوير. فهناك الكثير من المشاكل التي ما زالت عالقة، تنتظر إيجاد الحدود المناسبة لها. والكنيسة المسيحية مدعوة للاشتراك في تطوير وتفعيل وتطبيق مبادئ حقوق الإنسان: وعالمياً هناك على الأقل سبعة أسئلة مرتبطة بمبادئ حقوق الإنسان تنتظر الإجابة عليها:

أ) ما العلاقة بين حقوق الإنسان كفرد وحقوق الشعب كجماعة، خاصة وأن هناك دولاً ديمقراطية كثيرة تحترم حقوق الانسان في دولها، وتنتهك حقوق الشعوب المجاورة لها أو تلك التي تكيل لها العداء؟ (فنظرياً هناك الأمم المتحدة كتجمع تشترك فيه الشعوب قاطبة، أما عملياً فالأمم المتحدة ليست سوى انعكاس لميزان القوى الدولي، سواء الميزان الاقتصادي أو السياسي أو العسكري.) وماذا عن حقوق دول الجنوب أيام تسلط دول الشمال؟

ب) تقوم مبادئ حقوق الإنسان على المشاركة في الحكم في الخيرات الخ.. وهذا ينطبق إلى الآن على الدولة الواحدة. ولكن ماذا عن مبدأ المشاركة بين الجماعات.

ج) مبادئ حقوق الإنسان تضع الإنسان في مركز الاهتمام، بحيث يصبح الإنسان المخلوق الأهم والشمس التي تدور حولها كل الكواكب. وقد ينتج عن إساءة استخدام هذه الحقوق الحاق الأضرار بالبيئة التي يعيش فيها والمخلوقات الأخرى التي تحيط به حيوانية أكانت أم نباتية. لذا لا بد من تحقيق حقوق المخلوقات الأخرى، وسن القوانين التي تحافظ على الطبيعة والبيئة من تجبر الإنسان وتسلطه عليها.

د) تقوم مبادئ حقوق الإنسان على الحرية، حرية الإنسان في التقدم والتطور، ويبقى السؤال أين تنتهي حدود هذه الحرية، سؤال يطرح نفسه اليوم في مجالات تطوير الهندسة الوراثية والجينية.

ه) ما زالت مبادئ حقوق الإنسان منتشرة في مناطق معينة من الكرة الأرضية وعلى الأخص عند أتباع الديانات السماوية الثلاث. لذا يبقى السؤال عن إمكانية إيجاد تصور لمبادئ حقوق الإنسان ليشترك به أتباع الديانات جميعاً، وينتج عن تطوير فهم مشترك لأخلاقيات عالمية، بغض النظر عن الإنتماءات الدينية والسياسية والحضارية؟

و) حرية العقيدة والحرية الدينية هي إحدى الأسس الرئيسية لحقوق الإنسان، وقد تشكل هذه الفكرة حد للعديد من أديان العالم اليوم التي ما زالت تستخدم سياسات التكفير والترهيب وترى في نفسها الممثل الشرعي والوحيد لله منتهكة بذلك حرية العقيدة، لذلك لا بد من تطوير إيمان واع يقبل التعددية ولا يخشاها ويعطي الإنسان حريته الدينية، لأن الإيمان إن لم يتولد في النفس عن اقتناع فهو باطل.

ز) تنص مبادئ حقوق الإنسان على المساواة بين الذكر والأنثى، ولكن هذا نظرياً فقط أما عملياً فما زال الرجل هو المتسلط ولا تشترك المرأة إلا في القليل من المؤسسات.

وهناك أسئلة أخرى تطرح نفسها في مجتمعنا العربي:

- **هل مبادئ حقوق الإنسان هي مبادئ دخيلة على مجتمعنا العربي والإسلامي أم هي أفكار أصيلة ومتجذرة في تراثنا؟**
- **كيف يمكن استيعاب مبادئ حقوق الإنسان لمجتمع متعدد الثقافات والحضارات والأديان كمجتمعات الشرق الأوسط، وهل من أفكار شرق أوسطية أصيلة تنبع من خبرتنا العربية والإسلامية والمسيحية نستطيع أن نفعلها لتطوير هذه المبادئ لمستقبل البشرية؟ أسئلة كثيرة تدعو الكنيسة وتدعونا جميعاً للتفكير بها والإجابة عنها.**

٤. حقوق الإنسان ومستقبل المسيحية في الشرق الأوسط

لا أبالغ إن قلت أن مستقبل المسيحية في الشرق الأوسط إنما هو مرهون بمسألة حقوق الإنسان وكيفية اعتمادها أساساً لمنطقتنا المستقبلية. إذ إن فشلنا في هذه الحقوق إنما يقود إلى هجرة الأدمغة والكفاءات ويفرغ الأرض من كوادرها وتكون الكنيسة المسيحية العربية أكبر المتضررين، إذ ستفقد خيرة أبنائها. كما أن لمبادئ حقوق الإنسان انعكاسات اقتصادية وسياسية ستؤثر على مستقبل المنطقة هذا من جهة. ومن جهة أخرى تساعد على تطوير الاقتصاد إذ تفعّل الأفراد وتشجعهم على التقدم، كما أن صون حقوق الإنسان إنما يساعد على الاستقرار السياسي. أي أن الكنيسة مدعوة للمشاركة في بناء اقتصاد المنطقة، والمساهمة في إرساء قواعد الديمقراطية البرلمانية والدعوة لاحترام حقوق الإنسان وكرامته. وتبقى مبادئ حقوق الإنسان واجباً مقدساً لا بد من أدائه، ومسؤلية لا بد من الاطّلاع بها ولا يستطيع أن يطالب بها إلا من يعمل على إحقاقها. إذ منا السهل أن يطالب الإنسان بحقوقه، ولكن من الصعب أن يعطي الآخرين حقوقهم، وما أيسر أن يتغنى بها المؤمن وما أعسر أن يطبقها في حياته، وفي البيت والمدرسة والكنيسة والمجتمع. فحقوق الإنسان دعوة إلى العمل الجاد.

القدس في الخطاب المسيحي

تأتي هذه المقالة عن القدس في زمن صعب وعصيب، فنحن في زمن أضحت فيه القدس محاصرةً، معزولةً، عن أبنائها الحقيقيين، في زمن راح الإسرائيليون يكتبون تاريخها كما يروق لهم، ويغيرون معالمها للتناسب ومصالحهم أومطامعهم، ويستفردون بها في مباحثاتهم. ويفيق المسلمون والمسيحيون من سباتهم العميق ليروا بأن القدس قد أوشكت أن تفقد هويتها العربية، وأن المستوطنين قد راحوا يقتلعون أبناء القدس من بيوتهم، ويحتلون دورا تلاصق الأقصى تارة ، وتارة أخرى يحتلون نُزل القديس يوحنا وأحياء في سلوان، وأصبحنا نبكي القدس كما نبكي الأندلس الضائعة، ونشيد بعروبتها، ونصرخ بملء أفواهنا لنغطي على التهويد الحاصل.

في هذا الوقت بالذات، حري بنا كمسلمين ومسيحيين أن نسلط الأضواء على مدينة القدس، لما لها من أهمية دينية وتاريخية في حياتنا كفلسطينيين،لذا يتوجب علينا أن نميط اللثام عن الحقائق الدينية والتاريخية وأن نبين مكانة القدس في الكتاب المقدس. وسأتناول هذا الموضوع من خمسة وجوه أساسية : أولاً في العهد القديم، وثانياً في العهد الجديد وثالثاً القدس أم الكنائس، ورابعاً قبلة أنظار المسيحيين في العالم أجمع، وخامسا مكانتها المميزة عند المسيحيين العرب الفلسطينيين.

١. القدس في العهد القديم

تظهر الدراسات التاريخية والآرية أن الإنسان قد سكن كهوف القدس مع إطلالة الألفية الرابعة قبل الميلاد. وفي الألف الثالث قبل الميلاد بنى سكان الكهوف بيوتاً إذ وجدوا هناك نبع مياه صافٍ وهو ما عرف باسم «عين ستنا مريم».

وتشير المخطوطات المصرية القديمة أن سوراً بعرض مترين ونصف المتر كان قد بني في القرن الثامن عشر قبل الميلاد حول المدينة الصغيرة التي عرفت حينذاك باسم Yeru Salim نسبة إلى الإله شاليم إلهة الغروب والذي انتظر السكان منه السلم والسلامة والأمان.

وقد ورد اسم المدينة في رسائل تل العمارنة بمصر (حوالي سنة ١٤٠٠ ق.م.) «حقاً هذي أرض يروسالم، ليس أبي ولا أمي اللذان وهباها لي، وإنما يد الملك القديرة ! حقاً لقد جعل الملك اسمه على أرض يروسالم إلى الأبد. لذلك لن يتخلى الملك عن أراضي يروسالم».

ملاحظة: ربما قصد بها أورسالم

وقد ورد اسم المدينة هذا في العهد القديم قرابة الستمائة مرة. ومن الملفت للنظر أنه لا يوجد ذكر لهذا الإسم في أسفار موسى الخمسة المعروفة بالتوراة.

ومن الأسماء الأخرى الواردة في العهد القديم اسم «مدينة القدس»
(أشعياء ٤٨: ٢، نحميا ١١: ١،) (دانيال ٩: ٢٤ مدينتك المقدسة).
(**دانيال ٩: ٢٦** وبعد اثنتين وستين أسبوعا يقطع المسيح وليس له، وشعب رئيس آتٍ يخرب **المدينة والقدس** .....).

وفي العهد الجديد سميت «بالمدينة المقدسة» (متى ٤: ٥، ٢٧: ٥٣)، ويدعوها ابن سيراخ بِ «المدينة المحبوبة، (سيراخ ٢٤: ١١).

وفي النصف الثاني من الألفية الثالثة قبل الميلاد بلغ عدد سكان بيت المقدس قرابة الألفين كانوا من الساميين الكنعانيين. والكتاب المقدس لا يخفي جذور مدينة القدس الأصلية، إذ نقرأ في سفر حزقيال النبي: «هكذا قال السيد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض كنعان.أبوك أموري وأمك حثية.» (حزقيال ١٦: ٣). كما ويسمي الكتاب المقدس المدينة يبوس «مدينة اليبوسيين» (قضاة ١٩:١١)، وهم أبناء الكنعانيين (تك ١٠:١٦).

ويأتي أول ذكر لمدينة القدس في العهد القديم في سفر التكوين في الأصحاح الرابع عشر حيث نقرأ: «وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً».
وكان كاهناً لله العلي، وباركه (إبراهيم) وقال: مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض ومبارك الله العلي الذي أسلم اعداءك في يدك. فأعطاه عشرا من كل شيء. (تك ١٤: ١٨-٢٠).

ويؤكد الكتاب المقدس بهذا أن للقدس حضارة عريقة قبل مجيء العبرانيين إلى أرض كنعان، إذ أن إبراهيم الخليل نفسه كان قد التقى مع ملك تلك المدينة (الدويلة/ الملكية)، إن ملكها إنما شهد لله الواحد، خالق السموات والأرض وذلك حتى قبل أن يعرف إبراهيم الخليل الكثير عن هذا الإله الواحد الأحد.

وحسب الكتاب المقدس فإن أحد آخر ملوك أورشليم كان «أدوني صادق» ملك الأموريين والذي قتله وصلبه «يشوع بن نون». ولكن هذا لا يعني أنه بذاك قد انقرض سكان أورشليم الأصليين، بل إنما يعترف الكتاب المقدس أن يشوع بن نون لم يقدر أن يطرد اليبوسيين بل بقي سكانها صامدين في أرضهم:
«وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم (يشوع ١٥:٦٣)».

وهذا ما يؤكده مرة أخرى سفر القضاة (١:٢١)
«وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيين مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم.»

وكما نلاحظ فإن الكتاب المقدس يسمي سكان أورشليم الأصليين تارة باليبوسيين وتارة بالأموريين والحثيين وهذه البطون الكنعانية الثلاثة هي من سكنت جبال القدس (عدد ١٣:٢٩).

وحوالي سنة ألف قبل الميلاد (١٠٠٤- ٩٩٧) يسرد الكتاب المقدس كيف احتل الملك داود البيتلحمي مدينة القدس بواسطة رجاله. وقد اتخذ الكثير من علماء التاريخ واللاهوت من هذه الحادثة ALT بداية لتاريخ القدس وأعطوها ما لا تستحق من أهمية وما لا تحتمل من تفسيرات.

والواقع أن الكتاب المقدس يعترف أن الملك داود وبعد أن احتل المدينة قد أقام في الحصن الذي كان اليبوسيون قد بنوه فغيّر اسمه إلى مدينةٍ داود (٢ صموئيل ٥ : ٦-٨، أخبار الأول ١١: ٤-٩). واشترى داود من اليبوسي ارونة بيدراً «واسمه يعني الحر» بخمسين شاقلاً من الفضة ليبني عليه مذبحاً للرب (٢ صموئيل ٢٤: ١٨-٢٥).

ويؤكد الكتاب المقدس أن الله منع داود من أن يقيم له هيكلا هناك وذلك قصاصاً على ما اقترفته يداه (٢ صموئيل ٧: ٥-١٦). ويبدو أن الملك داود قد جعل من أورشليم تلك المدينة ذات الموقع الاستراتيجي مركزًا له ولحكمه. ومن المرجح أن ابنه سليمان (٩٦٥-٩٦٢) هو الذي وسع إلى الشمال الشرقي مضاعفا مساحة المدينة والذي بلغ تعدادها ٥٠٠٠ نسمة جاعلا منها عاصمته وهو الذي بنى الهيكل والذي دعي باسمه (ملوك الأول ٨). ولكن عظمة الملك سليمان لم تلبث أن ذبلت: فحبه للنساء الغريبات (ملوك الأول ١١ - ١-٨) وحبه للرفاهية، واستعباده للسكان الأصليين (ملوك الأول ٥: ٢٧-٣١)، قادت البلاد إلى الرزوح تحت الدين (ملوك الأول ٩: ١٠-١٤)، ومن ثم ما لبثت أن انقسمت المملكة إلى مملكتين واحدة شمالية دعيت اسرائيل، والثانية جنوبية دعيت يهوذا، وصارت أورشليم عاصمة يهوذا الجنوبية.

ولكن ورغم هذا الانقسام لم تعرف أورشليم طعم السلام، إذ احتلها أولا المصريون حوالي عام ٩٠٠ قبل المسيح (ملوك الأول ١٤: ٢٥-٢٦)، وبعد ذلك زهاء نصف القرن (٨٤٧-٨٤٥)ق.م أخذها الفلسطينيون والعرب (أخبار الأيام الثاني ٢١: ١٦-١٧). ودكت قلاعها من قبل الاسرائيلين حوالي عام ٧٩٠ قبل المسيح.

ولكن وفي عهد حزقيا الملك (٧٢٦-٦٩٧) عرفت أورشليم ازدهارا عمرانياً واقتصادياً ما لم تعرفه من قبل فامتدت أطرافها وازداد عدد سكانها ليبلغ حوالي ٢٥٠٠ نسمة. ولكن ليس كل ما يلمع ذهباً. لذلك راحت أصوات الأنبياء ترتفع محذرة من الإنجرار وراء الأثم، والباطل والظلم:
«اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت اسرائيل الذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم»
الذين يبنون صهيون بالدماء، وأورشليم بالظلم. رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يعلّمون بالأجرة وأنبياؤها يعرفون بالفضة وهم يتوكلون على الرب قائلين: أليس الرب في وسطنا لا يأتي علينا شر.

ويخلص النبي ميخا إلى أن هذا الفساد الذي دب في السياسيين والقضاة ورجالات الدين إنما سيجلب الدمار على المدينة وساكنيها:
«لذلك بسببكم تفلح صهيون كحقل وتصير أورشليم خربا وجبل البيت شوامخ وعرٍ» (ميخا ٣: ٩-١٢).

إن أورشليم التي كان النبي يحلم بها والتي أحبها الله وأراد لها الله أن تكون، هي مدينة من نوع آخر. عنها يكتب النبي (ميخا) ويقول:
«ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري إليه الشعوب. وتسير أمم كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب وإلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب. فيقضي بين شعوب كثيرين ينصف لأمم قوية بعيدة فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب في ما بعد. بل يجلسون كل واحد تحت كرمته وتحت تينته ولا يكون من يرعب لأن فم رب الجنود تكلم.» (ميخا ٤: ١-٤).

وقد رأى الأنبياء في الغزو البابلي الذي قاده نبوخذ نصر عام ٥٨٧ ق.م والدمار الذي حل بالقدس ودك أسوارها وهدم الهيكل فيها وسبي أبنائها. رأوا فيها عقاباً من الله وقصاصاً.

مع الغزو البابلي لم تعد أورشليم عاصمة ليهوذا، بل أصبحت جزءًا لا يتجزأ من ولاية السامرة البابلية.

ولكن الإنكسار كثيرا ما يستخدمه الله بداية للانتصار.....
فما لبثت شمس البابليين البهية أن تغيب عن الأنظار لتشرق بعدها شمس الفرس والذي سمح ملكها كورش بعودة اللاجئين إلى ديارهم عام ٥٣٨ قبل الميلاد: وقد رأى الأنبياء في هذا رحمة من الله وعزاء. فكتب أشعياء النبي:
«عزوا عزوا شعبي يقول إلهكم. طيبوا قلب أورشليم. ونادوها بأن جهادها قد كمل أن إثمها قد عفي عنه، أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها.....»

«على جبل عال» اصعدي يا مبشرة صهيون. ارفعي صوتك بقوة يا مبشرة أورشليم. ارفعي لا تخافي. قولي لمدن يهوذا هوذا إلهك. هوذا السيد الرب بقوة يأتي وذراعه تحكم له. هوذا أجرته معه وعملته قدامه. (أشعياء ٤٠: ١-١٠).

ونادى زكريا النبي قائلا:
«هكذا قال رب الجنود. غرت على أورشليم وعلى صهيون غيرة عظيمة....
قد رجعت إلى أورشليم بالمراحم فبيتي يُبنى فيها يقول رب الجنود ويمدُ المطمارُ على أورشليم. ناد أيضا وقل: هكذا قال رب الجنود. إن مدني تفيض بعد خيرًا والرب يعزي صهيون بعد ويختار أورشليم». (زكريا ١: ١٤-١٧).

إنه حق العودة ذاك الذي منحه ملك الفرس للمقدسيين، في الوقت الذي ما زال فيه اللاجؤون والمهجرون الفلسطينيون ينتظرون أن يحظوا به. ما زال أخوتنا يحتضنون مفاتيح بيوتهم منتظرين أجراس العودة أن تقرع.

بعد السبي البالبي اكتسبت أورشليم أهمية خاصة إذ لا يدري الإنسان قيمة الشيء إلا بعد فقدانه. لذلك نسمع عن سكان أورشليم يبكون في المنفى مدينتهم الحبيبة قائلين:
«على أنهار بابل هناك جلسنا. بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون. على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا، لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين:
رنمو لنا من ترنيمات صهيون. كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة. إن نسيتك يا أورشليم تنسى يميني. ليلصق لساني بحنكي إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي» (مزمور ١٣٧ : ١-٦).

بعد السبي أضحت القدس بهيكلها الثاني قبلة أنظار الحجاج، الذين راحوا يؤمونها من كل حدب وصوب مرنمين:
«فرحت بالقائلين لي إلى بيت الرب نذهب تقف أرجلنا في أبوابك يا أورشليم. أورشليم المبنية كمدينة متصلة كلها....أسالوا سلامة أورشليم، ليسترح محبوك. ليكن سلام في أبراجك. راحة في قصورك. من اجل أخوتي وأصحابي لأقولن سلام بك. من أجل بيت الرب إلهنا التمس لك خيرا». (مزمور ١٢٢: ١-٩).

وقاد عزرا ونحميا مرحلة العودة ومرحلة إعادة البناء لمدينة أورشليم والتي أصبحت في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد عاصمة لولاية الفارسية التي دعيت يهود.

لنطّلع على شهادة نحميا عما رآه في القدس في تلك الفترة:
«فجئت إلى أورشليم وكنت هناك ثلاثة أيام. ثم قمت ليلا أنا ورجال قليلون معي ولم أخبر أحدا بما جعله إلهي في قلبي لأعمله في أورشليم ....وخرجت من باب الوادي ليلا أمام عيني التنين إلى باب الدمن وصرت أتفرس في أسوار أورشليم المنهدمة وأبوابها التي أكلتها النار.... ثم قلت لهم: أنتم ترون الشر الذي نحن فيه كيف أن أورشليم خربة. وأبوابها قد أحرقت بالنار. هلم فنبني سور أورشليم ولا نكون بعد عاراً»
(نحميا ٢: ١١-١٧).

ويبدو أن نزعة عنصرية كانت مسيطرة على أولئك العائدين، حتى أنهم أرادوا أن يحتكروا أورشليم لهم وأن يهضموا حقوق السكان الأصليين إذ نقرأ في نفس الإصحاح:
«ولما سمع سنبلط الحوروني وطوبيا العبد العموني وجشم العربي هزأوا بنا واحتقرونا وقالوا ما هذا الأمر الذي أنتم عاملون. أعلى الملك تتمردون؟ فأجبتهم وقلت لهم أن إله السماء يعطينا النجاح ونحن عبيده نقوم ونبني ...وأما أنتم فليس لكم نصيب ولا حق ولا ذكر في أورشليم». (نحميا ٢: ١٩-٢٠).

ومن الجدير ذكره أن سفر نحميا إنما يؤكد أن أورشليم كانت دائما مدينة العرب، وسكنها أناس من جنسيات مختلفة سموا بشعوب الأرض (السكان الأصليين)، وكان منهم نساء أشوريات وعمونيات وموآبيات (نحميا ١٣: ٢٣).

وقد ضم الإسكندر الكبير أورشليم ضمن إمبراطوريته لتبدأ صفحة جديدة من تاريخ المدينة والتي من خلالها حاول الإسكندر أن يصهر شعوب الشرق الأوسط في شعب واحد وثقافة هيلينية واحدة.

ولكن حتى الإسكندر الكبير توفي شابا وأمر أن تظهر يده خارج النعش، فهو لم يدخل العالم بشيء ولم يستطع أن يخرج منه بشيء. وبعد موته صارت أورشليم أولا تحت حكم البطالسة في مصر ثم انتقلت إلى حكم السلوقيين في سوريا.

ومع إطلالة القرن الثاني ق.م. بدأت الثورات الداخلية تكثر، فثار المكابيون (مطارق) عام ١٦٥ وأقاموا دويلة يهودية جعلوا القدس عاصمتها ما فتئت أن احتلت عام ٦٣ ق.م. من قبل الحاكم الروماني بومباي ليبدأ العهد الروماني في القدس.

واستطاع هيرودس الأدومي كسب عطف الرومان فسموه ملكا على فلسطين المحتلة عام ٣٧ ق.م. وليس من قبيل الصدفة أن يكون هيرودس الآدومي هو باني أورشليم الحديثة، فهو من قام بتوسيع مساحتها، وبنى أسوارها من جديد، وهدم هيكلها الثالث وشيد قصورها وحصونها، ومد قنوات المياه من جبال الخليل وبيت لحم لتصب في بركة السلطان ولتمد المدينة العصرية بالماء اللازم للشرب وللري وللسياحة المتدفقة.

والقدس الهيرودسية هي القدس التي عاصرها المسيح، وكان هيرودس والذي لقب بالكبير قد جعل منها أجمل مدن العالم اليوناني الروماني. فشاد في كل بقعة منها بنايات لم ير لها ماضي المدينة من مثيل: من الملاعب والحدائق، إلى القصر الملكي الرخامي، إلى قلعة أنطونيا، إلى الأسوار العظيمة التي ما زلنا نرى بقاياها.

عن هذه المدينة العظيمة قال التلاميذ لسيدهم المسيح: «يا معلم، أنظر يا لها من حجارة! ويا لها من أبنية» (مرقس ١٣: ١).

٢. في العهد الجديد

إن نظرة سريعة على العهد الجديد، كتاب المسيحيين المقدس، لكافية في إظهار مركزية القدس فيه. بينما يرد ذكر مدينة بيت لحم في العهد الجديد مثلاً ثماني مرات، والناصرة اثنتا عشرة مرة، ويرد ذكر القدس واحدة وتسعين مرة. وبهذا تحتل القدس في الإنجيل المرتبة الأولى بلا منازع.

وتستمد القدس أهميتها لنا كمسيحيين من السيد المسيح نفسه، فإليها وجّه أنظاره (لوقا ٩: ٥١)، وحياته الأرضية لم تكن سوى مسيرة نحو القدس، فكانت محط أنظاره ونهاية دربه، ومكان صعوده (لوقا ١٣: ٣٣).

وقد ارتبطت حياة السيد المسيح بالقدس ارتباطاً ليس له مثيل، فظلت بصماته عالقة على حجارتها وفي كل شبر منها أقيمت معالمُ تشهد لشخصه وتذيع رسالته.

فبوابات القدس تشهد لدخوله إليها دخول الملوك إلى عواصمهم، وبيوتها ما زالت تتحدث عن المائدة التي أعدت فيها ليأكل مع تلاميذه عشاءه الأخير.

وبساتينها وأشجار زيتونها أبصرته على أديمها راكعاً مصلياً، وأزقتها نظرته يحمل الصليب سائراً على درب الآلام، وتلالها رأته مرفوعاً على الصليب معلقا بين الأرض والسماء، وصخورها انتفضت عندما حطم الأغلال وقام منتصراً على قوات الشر والفساد.

فالقدس هي المدينة التي اختارها الله لتكون مسرحاً للملحمة الإلهية الكبرى، ولتكون مدينة الفداء والخلاص والتحرر والإنعتاق. وبالرغم من مركزية القدس في حياة السيد المسيح، إلا أن حالة القدس في ذلك الوقت لم تكن للمسيح مدعاة للفرح، بل للحزن والحسرة، وهذا ما يظهر جليا من خلال أقواله المأثورة عن القدس:

قوله الأول سمع على مداخل مدينة نابلس عندما راح يتحاور مع المرأة السامرية، وكان في ذلك الوقت عداء شديد بين السامريين واليهود، وبينما اعتبر اليهود أن الله لا يسمع صلواتهم إلا في القدس، وأن القدس يجب ألا تدنس من قبل السامريين، مما اضطر السامريين لإقامة معبد خاص بهم على جبل جرزيم. ولهذا قالت المرأة السامرية للسيد المسيح: «آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، أي جرزيم، وأنتم تقولون أن في القدس الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه»، قال لها يسوع:
«يا امرأة صدقيني أنه تأتي ساعة وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق... أن الله روح، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا».
(يوحنا ٤: ٢١-٢٤)

بهذه الكلمات أراد يسوع أن يوضح للمرأة بأنه لا يجوز استخدام اسم الله أو الدين للانفراد بالأماكن المقدسة، وإلا حلت عبادة الحجارة مكان عبادة الله. فالإيمان الحقيقي هو انفتاح على الله وعلى الآخرين، وليس انعزال وانفرادية. فما من مكان مقدس إن لم يكن القلب قد تقدس وتطهر أولا. فالديانة الحقيقية هي تلك التي تقيم العدل والحق في الأرض، فالقدس هي المكان الذي يسود فيه العدل.

وفي حادثة أخرى نسمع عن المسيح وقد جاء إلى القدس، ولما دخل الهيكل ابتدأ يخرج الذين يبيعون ويشترون فيه قائلا لهم: مكتوب أن بيتي بيت الصلاة. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص». (لوقا ١٩: ٤٥-٤٦).

«بهذه الكلمات حذر المسيح من المتاجرة بالدين والهيكل. ففي ذلك الزمان جعل اليهود الهيكل حكرا على اليهود فقط، ورفضوا أن يدخله غير اليهود خوفا من أن ينجّسوه. في الوقت الذي حولوا قسما منه إلى سوق للمتاجرة، مما أغضب المسيح الذي أصر على أن الهيكل بيت للصلاة وللشعوب قاطبة وليس لشعب دون الآخر. وأن القدس هي مدينة مقدسة لجميع الأديان السماوية ولا يمكن أن يستأثر بها أحد على حساب الآخرين».

وفي حادثة أخرى نسمع المسيح يخاطب أورشليم متنبئاً وقائلاً:
«يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها. كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا».

في الحالة الرابعة، نسمع عن السيد المسيح قادما من العيزرية وعندما وصل إلى جبل الزيتون نظر إلى القدس وبكى قائلا:
«إنك لو علمت أنت أيضا حتى في يومك هذا ما هو لسلامك، ولكن الآن قد أخفي عن عينيك».

يسوع يبكي على القدس، لأنها تعيش بعيداً عن السلام، وهذا تناقض في حد ذاته، فالقدس هي مدينة السلام، وإذا رفضت القدس السلام، لم تعد قدس الله، بل قدس البشر، فالسلام يبدأ من القدس، فلا سلام من دون القدس، ولا قدس إن لم يكن سلام.

بعد ألفي عام، ما زال سيدي يبكي. . . .
يبكي على المدينة المقدسة. . . . .
يبكي على المدينة المباركة. . .
ما زال دمعه يجري مهراقا . . .
يجري سيولا وبحارا وأنهارا . . . . .

أجل بعد ألفي عام ونيف ما زال يسوع الناصري يبكي. . . .
فهذه المدينة المقدسة لم تعرف بعد ما هو لسلامها . . . .
آلاف ثلاثة خلت أراد المسيح أن يجمع أبناءها كما تجمع
الدجاجة فراخها من حولها . . . . .
أراد أن يجمع اليبوسي مع الكنعاني مع العبراني. . . .
أراد أن يجمع السامري مع اليهودي. . . . .
ولكنهم لم يريدوا . . . . . .
هو أراد أن يجمعهم كما تجمع الدجاجة فراخها دون تمييز عنصري
وهم أرادوا أن يكونوا فرادى. . . . .

آلاف ثلاثة مرت وهم لم يتعلموا بعد معنى العيش المشترك،
معنى تقاسم الأرض. . . . .معنى المشاركة والحوار. . . . .

وبقيت هذه المدينة المباركة مجزأة إلى أمم ودويلات
تتصارع فيما بينها . . . . . تضحي بدماء أبنائها على مذبح
الساسة وإكراما للقبيلة أو اعتدادًا بالقوم أو بالجنس
أو إطاعة الشريعة أو تدين أو فلسفات. . . . . .

لا يوجد فيما بينها إلا بطش مستعمر نفوذ إمبراطورية أو
فتوحات غاز أيًا كان. . . . . .
سواء أكان هَو الأسكندر المقدوني أو هيرودس الكبير أو ريشارد قلب الأسد
سواء أكانت هي الإمبراطورية الرومانية. . . .أو البيزنطية أو العثمانية. . . .
فراخ هذه الأرض لم تقبل يوما أن تجتمع معا تحت جناحي أمها،
ولكنها قبلت أن تركن عند قدمي نسر جارح أو طير كاسر.

المدينة المقدسة وبعد ألفي عام لم تدرك بعد ما هو لسلامها . . . .
تظن أن الأسوار الأسمنتية تخلق جيرانا طيعين. . .
وتظن أن الفصل العنصري هو حل يفرض على ضعيف
في القرن الحادي والعشرين. . . . .
المدينة المقدسة وبعد ألفي عام ما زالت تحول بيت الصلاة
إلى مغارة للصوص. . . . .
بيوت الصلاة الكثيرة في القدس أصبحت مقراً للصوص. . . .
تجارة رائجة ولكنها بعيدة كل البعد عن الإيمان الحق والقويم. . .
حتى الدول العظمى والأمم المتحدة أيضا لا يعرفون ما هو لسلامها . . . .

الدول العظمى تتغنى برفاه للقدس ولكنها لا تحرك ساكنا . . . .
والدول العربية تغني، للقدس سلام آت، ولكنه ليس إلا هرج ومرج
وفقاعات في الهواء . . . . . .
بلايين لا تحصى تنفق لتمويل الحروب في الشرق الأوسط
وبلايين أخرى للتسلح ولا نرى إلا الملاليم التي تصرف على التعليم
وعلى الأبحاث والصناعات.
بعد ألفي عام، المدينة المقدسة لا تدري ما هو لسلامها . . . .

في ختام العهد الجديد نسمع لهجة تنم عن استياء واضح من مدينة القدس الأرضية، لذلك ترتفع الأنظار إلى مدينة سماوية كما تصورها الرائي يوحنا:
«وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً:
هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبا. ولله نفسه يكون معهم إلهاً لهم». (رؤيا ٢١: ٢-٣).

٣. القدس أم الكنائس

قبل صعوده إلى السماء أوصى يسوع تلاميذه ألا يبرحوا من القدس، بل أن ينتظروا فيها كي يؤيدوا بقوة الروح القدس. خمسون يوماً بعد قيامة المسيح، حل الروح القدس على التلاميذ فولدت الكنيسة، ولدت في القدس، لذلك دعيت القدس بأم الكنائس.

يوم ميلاد الكنيسة المسيحية هو يوم خاص بالنسبة لنا نحن العرب المسيحيين، إذ نقرأ في العهد الجديد أن عرباً كانوا في القدس يوم نشأت الكنيسة وأنهم قبلوا الروح القدس، وبذلك يصبح هذا التاريخ ميلاد كنيسة العرب. (أعمال الرسل ٢: ١١).

من القدس انطلقت البشارة المسيحية إلى المسكونة كلها، وفيها عقد الرسل مجمعهم الأول ليناقشوا التحديات التي تعترض طريق الكنيسة، (أعمال ١٥) وبقيت القدس مقر القيادة الكنسية حتى سنة ست وستين ميلادية، عندما اندلعت الحرب في فلسطين واضطهد المسيحيون واضطروا للجوء إلى شرق الأردن.

٤. القدس قبلة أنظار المسيحيين

بعد انتصار الإمبراطور قسطنطين على خصومه سنة ٣١٢ صارت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، ومعه عادت القدس لتحتل مكانة مميزة في قلب المسيحيين في العالم أجمع. فخلال زيارة والدةِ الإمبراطور قسطنطين الملكة هيلانة إلى فلسطين عام ٣٢٤ وضع حجر الأساس للعديد من الكنائس. فشيدت كنيسة القيامة، وكنيسة أخرى على جبل الزيتون وكنيسة المهد وغيرها من الكنائس، وصارت هذه الكنائس محط أنظار الحجاج المسيحيين، فراحوا يتوافدون على فلسطين، يتبركون بكل مكان في القدس مر به المسيح أو لمسه.

ولهذا دعيت الكنيسة الأولى «بفلسطين» بالإنجيل الخامس، كون حجارتها وأسوارها تتحدث عن حياة السيد المسيح، وكون كنائسها تشهد على أعماله، وأجراسها تذيع حمده. ولهذا راح الرهبان يهرعون إلى فلسطين ليسكنوا القدس مركزاً للإشعاع المسيحي، ففيها طورت الكنيسة طقوس العبادة المسيحية، فبالقرب من القبر المقدس وفي القرن الرابع ألف القديس كيرلس المقدسي نظام العبادة والقداس الإلهي.

ولأهميتها رأى المسيحيون في القدس مركزَ العالم برمته، لذلك رسموا في الخرائط القديمة القدسَ في الوسط دلالةً على مركزيتها، كما يظهر على سبيل المثال لا الحصر في فسيفساء مأدبا في القرن السادس.

ولهذا بنيت بجانب كنيسة القيامة كنيسة أخرى أطلق عليها اسم كنيسة نصف الدنيا دلالة على أن القدس هي قلب العالم النابض. وبقيت القدس في قلوب المسيحيين على مختلف ألوانهم وأجناسهم، وبقي شوق غريب يداعبهم ليحثهم على زيارة القدس والتبرك بمقاماتها.

وهكذا كتب الشاعر المسيحي سليمان الغزي في القرن الحادي عشر للميلاد يقول:

رأيت القدس في حلم المنام — كضوء النور في كدر الظلام
فقد متُ المسير إليه أسعى — على قدمي في عقب الصيام
وحيدا لم يصاحبني رفيق — لخوفي من فساد الالتئام

٥. مكانة القدس المميزة عند المسيحيين العرب الفلسطينيين

للقدس مكانة خاصة في قلوب المسيحيين العرب الفلسطينيين، فهم ليسوا بحجاج يزورون القدس أيام ليتركوها بعد ذلك، بل إن حياتهم مرتبطة بالقدس ومقدساتها، ومن الملاحظ أن الوجود المسيحي العربي الفلسطيني إنما يتمركز حول الأماكن المقدسة، كبيت لحم، والناصرة والقدس....

وأذكر كيف كانت جدتي تدعو القدس ب «المدينة»، وكأن لسان حالها يقول أن القدس لهي المدينة الوحيدة التي تستحق أن يستعمل لها أل التعريف، فهي مدينة فريدة في مكانتها وفي طابعها وفي تاريخها. وعندما كانت تذهب لزيارة القدس كانت تتزين وتلبس أجمل حلة لديها وكأنها تذهب للقاء حبيبها.

القدس مدينة مقدسة بالنسبة لنا كمسيحيين، لكن قداستها لا تكمن في حجرها بل في بشرها، واليوم ولأولِ مرة في تاريخ القدس أصبح الوجود الفلسطيني العربي المسيحي في القدس مهدداً بالإضمحلال:

أ. **القدس القديمة ٩٢٧ دونم**
أحياء مسيحية ٤٢٠ أي ٤٥٪
أحياء مسلمة ٤٠٥
أحياء يهودية ٤٠
مرافق عامة ٦٢
ب. **عدد الأديرة ما يقارب ١٠٠ دير وكنيسة**
ج. **عدد المدارس ٢٤ مدرسة**
د. **عدد المؤسسات الخيرية ٤٧ مؤسسة**

نظرة سريعة على أعداد المسيحيين
فقد بلغ عدد المسيحيين العرب الفلسطينيين في القدس عام ١٩٤٧ (٢٧٠٠٠)، وهذا يعني أن عددهم اليوم كان يجب أن يكون على الأقل الضعف إن أخذنا المعدل الطبيعي للتكاثر في فلسطين. ولكن واحسرتاه إذ لا يعيش في القدس اليوم سوى (٩٠٠٠) مسيحي عربي فلسطيني مما يعني أن ٦/٥ من الفلسطينيين قد هجروا في الستين سنة الأخيرة.

وأصبحت القدس مهددةً لأن تصبح متحفا يأمه الحجاج، يلتقطون أمامه الصور التذكارية، ولكن ما من حياة في جنباته.

اليوم ولأول مرة في تاريخ فلسطين أصبح أبناء فلسطين من مسيحيين ومسلمين غرباء في عقر دارهم، فهم محرومون من رؤية زهرة مدائنهم، ومحرومون من رؤية أمهم القدس، بينما أضحت القدس سجينة لا يستطيع الفلسطيني أن يزورها إلا بتصريح عسكري.

يحدث هذا على مرأى ومسمع العالمين المسيحي والإسلامي. فلو منع اليهود من زيارة القدس لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها، أما وقد منعنا كفلسطينيين من زيارتها، فما من أحد يحرك لنا ساكنا.

وما أشبه وضع القدس اليوم بوضعها في القديم، عندما كتب عنها النبي إرمياء يقول: «كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب، كيف صارت كأرملة العظيمة في الأمم، السيدة في البلدان صارت تحت الجزية، تبكي في الليل بكاء ودموعها على خديها، ليس لها معز من كل محبيها، كل أصحابها غدروا بها صاروا لها أعداء».

٥. الخطاب الكنسي تجاه القدس

هناك كم هائل من البيانات والقرارات والخطابات الكنسية المتعلقة بالقدس، ولذلك كان لزاماً علينا أن نحدد الموضوع بدقة أكثر. فاخترنا ثلاثة محاور رئيسية لدراسة هذا الخطاب، إذ سنسلط الأضواء أولاً على القدس في خطاب مجلس الكنائس العالمي، ومن ثم القدس في الخطاب الفاتيكاني، لننهي البحث عن القدس في خطاب رؤساء الكنائس المسيحية في الأرض المقدسة.

أ. القدس في خطاب مجلس الكنائس العالمي:

تأسس مجلس الكنائس العالمي عام ١٩٤٨ تعبيراً عن الحركة المسكونية وكرد فعل على الحرب العالمية الثانية. ويضم المجلس اليوم ٣٤٩ كنيسة تمثل ما مجموعه ٥٩٠ مليون مسيحي في حوالي ١٥٠ دولة. ويضم المجلس الكم الأكبر من الكنائس الإنجيلية/ البروتستنتينية والكنائس الأرثوذكسية، وتشترك فيه الكنيسة الكاثوليكية بصفة مراقب فحسب.

في العام الأول لتأسيسه تطرق مجلس الكنائس العالمي وبالإشتراك مع المجلس التبشيري العالمي إلى قضية القدس. ففي ١٩٤٩/٦/١٣ وجه المجلس رسالة إلى United Nations Conciliation Commission تحت عنوان «حماية المصالح والأعمال الدينية في فلسطين» وذلك تمشياً مع قرار الجمعية العمومية في ١٩٤٩/٥/١١ والذي أكد فيه أنه في إطار «بحث موضوع تدويل القدس وحماية الأماكن المقدسة وحرية الوصول إليها»، ستأخذ اللجنة بوجهة نظر الفاتيكان، والبطريركية الأرثوذكسية، والسلطات الدينية المسلمة بالإضافة إلى اللجنة الكنسية للشؤون الدولية (والتي تضم مجلس الكنائس العالمي).

وقد ركزت الرسالة على ثلاثة شروط يجب أن تكون جزءاً من أية معادلة سياسية بما يخص فلسطين عامة والقدس خاصة وهي:

١. حماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية في فلسطين عامة وفي القدس وبشكل خاص ولا سيما الحرية الدينية الكاملة بغض النظر عن العرق أو الجنس أو اللغة أو الدين.
٢. حماية الأماكن المقدسة والأوقاف الدينية في فلسطين وتأمين حرية الوصول إليها كجزء من واجب المجتمع الدولي.
٣. التأكيد على إعادة الأملاك الكنسية في فلسطين والتي احتلت إبان الحرب من اليهود أوالعرب إلى أصحابها. وتؤكد الرسالة أن كل الانتهاكات حصلت في المناطق التي تسيطر عليها السلطات الإسرائيلية. وقد أتت هذه الرسالة ضمن النقاشات الدائرة في أوساط الأمم المتحدة بخصوص تدويل القدس. ولكن ومع نتائج الحرب العربية الإسرائيلية والنكبة وإتفاقية الهدنة لم يعد هذا الموضوع مطروحاً على بساط البحث، لا في الامم المتحدة ولا في مجلس الكنائس العالمي، لذلك لم يرد موضوع القدس في مداولات المجلس حتى نهاية الستينيات. ففي اجتماع اللجنة المركزية لمجلس الكنائس العالمي في كانتربري ما بين ١٢-١٩٦٩/٨/٢٢ أوصت اللجنة:
«بالاهتمام الجدي من قبل اللجنة المختصة بالبدء في حوار مع مسيحيين،ويهود ومسلمين بما يخص حماية الأماكن المقدسة ووضع القدس وسكان المدينة».

ولكن اهتمام المجلس الحقيقي بالقدس بدأ في منتصف السبعينيات. ففي اجتماع اللجنة المركزية للمجلس في برلين في آب عام ١٩٧٤ أكدت اللجنة أن من أجل الوصول إلى موقف مرضي بخصوص القدس لا بد من مراعاة ما يلي:

١. أن القدس هي مدينة مقدسة للديانات السماوية الثلاث.
٢. أن الأماكن المقدسة المسيحية هي ملك لكنائس أعضاء في المجلس وأن أي حل لا بد وأن يأخذ حقوق هذه الكنائس في الحسبان.
٣. أن الموضوع لا يقتصر على الأماكن المقدسة فحسب بل هو مرتبط عضوياً بإيمان الجماعات الحية في المدينة المقدسة، وبالتالي لا بد لأي حل أن يأخذ «حقوق واحتياجات السكان الأصليين في الحسبان»، وعبرت اللجنة عن قناعتها أن مواضيع السيادة القانونية على القدس ستجد حلاً لها فقط في إطار اتفاق سلام ينهي الصراع.

وقد رددت الجمعية العامة لمجلس الكنائس العالمي والتي إلتأمت في نيروبي عام ١٩٧٥ على قرارات اللجنة المركزية وأضافت إليها ما يلي:

١. أهمية التعاون بين أتباع الديانات السماوية لضمان أن تكون القدس مدينة مفتوحة لأتباع الديانات السماوية الثلاث كي يلتقوا ويعيشوا معاً.

٢. أهمية احترام القوانين الخاصة بالجماعات المسيحية والسلطات المضمونة بالإتفاقيات الدولية (باريس ١٩٥٦ و برلين ١٨٧٨) وعصبة الأمم والمعروفة باتفاقية الوضع القائم Status Quo.

٣. التأكيد على أهمية ألا تصير الأماكن المقدسة مجرد مزارات بل أن تخدم كأماكن حية للعبادة الجماعات المسيحية التي حافظت على جذورها وحياتها في المدينة المقدسة.

٤. إن مستقبل القدس يحدد فقط ضمن إطار سلام شامل وتحت مظلة المجتمع الدولي وبضمانات دولية.

أما أول بيان للجنة المركزية والذي حمل اسم «بيان عن القدس» فقد أقر في اجتماع اللجنة في جنيف في آب ١٩٨٠ وجاء رداً على قرار الكنيست الإسرائيلي في ١٩٨٠/٧/٣٠ بضم القدس الشرقية إلى إسرائيل.

في هذا البيان رفضت اللجنة عمل إسرائيل الأحادي الجانب بضم القدس الشرقية وبتوحيدها وبإعلانها عاصمة أبدية لدولة إسرائيل كما ورفضت التفرد بالسيادة عليها، وذلك لمخالفة هذا القرار لقرارات الأمم المتحدة وكونه يحبط كل المحاولات لإيجاد حل عادل لمشكلة الشرق الأوسط معتبرة في الوقت ذاته أنه يشكل تهديداً للسلم الإقليمي والدولي.

وأكدت اللجنة أن موضوع القدس لا بد وأن يكون جزءاً من المفاوضات بين إسرائيل والشعب الفلسطيني والمرتبط بحق تقرير المصير. هذا وأوصت اللجنة بمساعدة الكنائس في القدس على توحيد صوتها وتمكينها من اتخاذ قراراتها لتكون شريكاً في تقرير مصير المدينة.

هذا وتطرقت الجمعية العمومية لمجلس الكنائس العالمي والتي انعقدت في فانكوفر في تموز- آب من عام ١٩٨٣ إلى قضايا الشرق الأوسط شاجبه غزو إسرائيل للبنان، وإقامتها للمستوطنات في الأراضي المحتلة، وسياسة الاعتقالات رافضة في الوقت ذاته سياسة الغطرسة والقوة مؤكدة على أهمية إجراء مفاوضات بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية.

أما بخصوص القدس فقد شددت الوثيقة على قدسية المدينة اتباع الديانات السماوية الثلاث، مؤكدة على أهمية الحوار مع اليهود والمسلمين على موضوع القدس، وعلى أهمية أن يشمل أي اتفاق نظام الوضع القائم.

هذا ودعت الكنائس إلى العمل على ضمان استمرارية الوجود والشهادة المسيحية في القدس، ولفت نظر الكنائس إلى وضع السكان الأصليين من مسلمين ومسيحيين والّذين يعانون من أعمال قمع ومنع أتباع هاتين الديانتين من زيارة القدس.

مع انطلاق الإنتفاضة الفلسطينية وبعد مجزرة الأقصى طالب الأمين العام في بيان له في ١٩٨٨/١٠/١٢ مجلس الأمن بخطوات عملية وفعالة لحماية الفلسطينيين في الأراضي المقدسة وعلى إقامة مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط تبحث فيه كل القضايا بما فيها القدس.

وقد عاد موضوع القدس بقوة إلى جدول أعمال مجلس الكنائس العالمي في منتصف التسعينيات. فبعد اتفاق أوسلو، وتوقيع الفاتيكان اتفاقية مع إسرائيل وإقامتها علاقة رسمية مع منظمة التحرير الفلسطينية، دعا المجلس بالشراكة مع الاتحاد اللوثري العالمي، والفاتيكان والمجلس البابوي للحوار بين الأديان إلى مؤتمر عن الأهمية الروحية لمدينة القدس (١٩٩٤)، كما وزار الأمين العام لمجلس الكنائس الأراضي المقدسة في عام ١٩٩٥، وكان موضوع القدس على جدول أعماله.

وصدرت أقوى البيانات لمجلس الكنائس العالمي المتعلقة بالقدس، وجاءت على النحو الآتي : فقد أقرت في اجتماع الجمعية العمومية التاسعة في هاراري بين ٣-١٩٩٨/١٢/١٤ وضع القدس في إطار القانون الدولي ابتداءً بمسؤولية الانتداب البريطاني تجاه الأماكن المقدسة والجماعات الدينية في فلسطين، مروراً بقرار التقسيم في ١٩٤٧/١١/٢٩ والقاضي بجعل القدس Corpus separatum، وقرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة رقم ١٩٤ والذي حدد وضع القدس، بالإضافة إلى معاهدة جنيف الرابعة بخصوص الأراضي المحتلة. وقرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة رقم ٣٠٣ والصادر في ١٩٤٨/١٢/٩ والقاضي بوضع القدس تحت إدارة دولية، وانتهاء قرارات مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢(١٩٦٧) و ٣٣٨ (١٩٧٣) والقاضية بالانسحاب من كافة الأراضي المحتلة بما فيها القدس، مذكرة المجتمع الدولي بمسؤولياته وواجباته تجاه القدس.

وأكد البيان - على هذه المبادئ بما يخص القدس:

١. أن الحل السلمي والجغرافي بين الفلسطينيين والإسرائيليين يجب أن يحترم حرمه القدس ووحدتها.
٢. الوصول إلى الأماكن يجب أن يكون حراً، وحرية العبادة يجب أن تصان لأتباع كل الديانات.
٣. حق كل الجماعات في القدس القيام بالنشاطات الدينية والتربوية والاجتماعية.
٤. حق الشعب الفلسطيني في الوصول إلى القدس بحرية تامة يجب أن يحترم ويؤمن.
٥. على القدس أن تبقى مدينة مفتوحة وموحدة.(Inclusive)
٦. على القدس أن تكون مدينة مشتركة shared بما يخص السيادة والمواطنة.
٧. احترام اتفاقية جنيف الرابعة بما يخص حقوق الشعب الفلسطيني، بالبناء والإقامة، وعدم القيام بأية إجراءات لتغيير السكان أو الحدود وتغيير الطابع الديني والتاريخي والثقافي لمدينة القدس بدون موافقة الأطراف والمجتمع الدولي.

ب. القدس في الخطاب الفاتيكاني:

طالب الفاتيكان ومنذ منتصف القرن الماضي بوضع القدس تحت إطار دولي، وقد أعلن البابا بيوس الثاني عشر في رسالته (١٩٤٩/٤/١٥) Redemptoris Nostri Cruciatus - والتي جاءت كرد فعل على النكبة- «أن الوقت قد حان لجعل القدس ومحيطها، تحت حماية قانونية دولية سيما أنها تحيا ذكرى حياة وموت المخلص، وهذا أفضل حل(الآن) لحماية الأماكن المقدسة».

هذا وقد كرر كل من البابا يوحنا الثالث والعشرين وبولس السادس ويوحنا بولس الثاني هذا الموقف والقاضي بتدويل القدس. ولكن وبعد توقيع اتفاق أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وتماشياً مع المعطيات الجديدة على الساحة السياسية في الشرق الأوسط فقد قام الفاتيكان أولاً بتوقيع اتفاقية بينه وبين دولة إسرائيل وذلك في ١٩٩٣/١٢/٣٠، ومن الملفت للنظر أن هذه الاتفاقية لم تتضمن أي بند عن القدس، فبالنسبة للفاتيكان تعتبر القدس الشرقية والتي تحوي الأماكن المقدسة جزءاً لا يتجزأ من الأراضي الفلسطينية المحتلة. لذلك اكتفت الاتفاقية بالتأكيد على الحفاظ على الوضع القائم للأماكن المقدسة Status Quo وعلى حرية وحق الكنيسة في إقامة المؤسسات وإدارة أوقافها.

وتماشياً مع هذه الخطوة أقام الفاتيكان في ١٩٩٤/١٠/٢٦ علاقات رسمية مع منظمة التحرير الفلسطينية حيث تم افتتاح بعثة لفلسطين في الفاتيكان، وقد تمخض عن هذا الاعتراف اتفاقية أساسية بين الفاتيكان ومنظمة التحرير الفلسطينية والتي وضعت في ٢٠٠٠/٢/١٥ قبيل زيارة البابا إلى الأراضي المقدسة.

وقد تم التطرق إلى موضوع القدس في مقدمة الاتفاقية (مما يجعلها غير ملزمة قانونياً)، حيث نقرأ: «أن حلاً عادلاً لموضوع القدس، استناداً إلى القرارت الدولية، هو نقطة محورية لسلام عادل ودائم في الشرق الأوسط، وأن القرارات والأعمال الإنفرادية والتي تغير الطابع الخاص والوضع الخاص لمدينة القدس هي من ناحية معنوية وحقوقية مرفوضة». ودعت الإتفاقية إلى وضع خاص لمدينة القدس بضمانات دولية يحافظ على ما يلي:

١. حرية الديانة والضمير للجميع
٢. المساواة أمام القانون لأتباع الديانات الموحدة الثلاثة ومؤسساتهم وأتباعهم في المدينة المقدسة.
٣. الحفاظ على الهوية الخاصة والمقدسة للمدينة وأهميتها الدينية والثقافية والتراثية العالمية.
٤. حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة والعبادة فيها.
٥. المحافظة على نظام الوضع القائم Status Quo في الأماكن المقدسة.

هذا وقد اعترضت وزارة الخارجية الإسرائيلية على تضمين القدس في هذه الاتفاقية. كما اعتبرها أبراهام فوكسمان من ADL تدخلاً يعيق المفاوضات الثنائية بين الفلسطينيين وإسرائيل.

هذا وقد خاض الفاتيكان جولة ثانية من المفاوضات مع الفاتيكان في السنين الأخيرة مع الإعلان عن قرب التوصل إلى اتفاق «تاريخي» بين الفاتيكان وإسرائيل وقيل أنه تضمن مواضيع تخص القدس (علية العشاء الأخير) ولكن لم يعلن رسمياً عن بنود مثل هذا الاتفاق.

ج. القدس في خطاب رؤساء الكنائس في الأرض المقدسة:

ابتدأ رؤساء الكنائس المعترف بها رسمياً وعددها ١٣ ابتداء من عام ١٩٨٨ بإصدار بيانات مشتركة جاءت في سياق الانتفاضة الفلسطينية الأول والمد الجماهيري الذي طال أعضاء هذه الكنائس الفلسطينيين.

فقد صدر البيان الأول لرؤساء الكنائس المسيحية في القدس في ١٩٨٨/١/٢٢، وتبعه البيان الثاني في ١٩٨٨/٢/٢٣ وقد بدأ رؤساء الكنائس بيانهم هذا بالقول: هذا هو صوت الكنيسة الأم في القدس، ويعبر هذا القول عن هوية كنائس القدس باعتبارها أم الكنائس، ولكن لم تكن القدس هنا موضوعاً بحد ذاته بل تعبيراً عن هوية الكنائس.

ويلاحظ الاختلاف إذ ما قارنّا هذا البيان بالبيان الثالث والذي صور في حزيران عام ١٩٨٩، والذي تحدث عن الأوضاع في « القدس والضفة الغربية وغزة». هنا صار للقدس بعد جغرافي ولم تعد فقط مجرد تعبير عن هوية دينية. جاء هذا التغيير تماشياً مع إعلان المنظمة في الجزائر باستقلال فلسطين في ١٩٨٨/١١/١٥.

أما البيان الرابع في ١٩٩٠/٤/٢٣ فقد جاء كرد فعل لاحتلال مستوطنين من جماعة عطيرت كوهانيم نزل القديس يوحنا في القدس الشرقية (١٩٩٠/٤/١١).

وأشار البيان إلى أن هذا الاحتلال «يعرض للخطر الوحدة والاستقلالية الدينية والثقافية لحارات النصارى والأرض والمسلمين منتهكاً الوضع القائم منذ مئات السنين، وهوية الحارات التي تم الحفاظ عليها من قبل الحكومات المتعاقبة مما يعرض للخطر استمرارية الوجود المسيحي في القدس».

وطالب البيان الحكومة الإسرائيلية بإخراج المستوطنين وإرجاع الأملاك إلى البطريركية كما ودعوا إلى إغلاق الأماكن المقدسة في ١٩٩٠/٤/٢٧.

وقد اضطرت الأحداث المتعاقبة رؤساء الكنائس على التركيز على مواضيع يتعلق جلها بالقدس. فقد جاء البيان الخامس (أكتوبر ١٩٩٠) استذكاراً للمذبحة النكراء في الحرم الشريف في ١٩٩٠/١٠/٨، كما وأشار البيان السادس في ١٩٩٠/١٢/٢٠ إلى «مشاكل من نوع جديد»، تمثلت في «المحاولة المستمرة لتغيير الديموغرافيا في القدس»، «والتآكل المستمر للحقوق والامتيازات التاريخية التي حظيت بها الكنائس» وفرض الضرائب ومحاولات لاستلاب الأملاك الكنسية هناك. كما أشار البيان السابع في ١٩٩١/٣/٢٣ إلى الخطر الناجم عن محاولة تغيير «الطابع الأصيل والتعددي لمدينة القدس».

واستهجن البيان الثامن في ١٩٩١/٥/٣٠ مهاجمة الإعلام للآباء الفرنسيسكان وللشعارات المسيئة للمسيحية والتي كتبت على جدران أحد الأديرة.

وقد مثلت البيانات العشر الأولى ردود فعل على الأحداث اليومية في الأراضي المحتلة عامة والقدس خاصة. أما أول وثيقة خاصة بالقدس فقد أصدرها رؤساء الكنائس في ١٩٩٤/١١/٢٣، أي ستة أشهر بعد توقيع اتفاق غزة وأريحا في ١٩٩٤/٥/٤، وقد اشتملت الوثيقة على ١٥ نقطة سأحاول أن أوجزها بما يلي:

١. القدس مدينة مقدسة في نظر أبناء الديانات الموحدة الثلاث، وأن طبيعتها القدسية الفريدة تجعل منها مدعاة للمصالحة لا مصدر صراع وتنافر.
٢. إن مسيرة السلام بين العرب وإسرائيل تتجه نحو حل الصراع، أما القدس فظلت على هامش هذه المسيرة، لذلك لا بد من الشروع في التفكير في هذه القضايا (المقصود قضايا الوضع النهائي).
٣. مواقف الطرفين من موضوع القدس متباعدة بل متصارعة.
٤. إن كان هناك عبرة في التاريخ فهي «أنه لا يمكن لهذه المدينة أن تكون ملكاً لشعب أو لدين واحد دون الآخر، بل يجب أن تكون القدس مفتوحة للجميع ويتشارك بها الجميع، أي أن للقدس دور عالمي وشمولي».
٥. ثم تتطرق الوثيقة للرؤيا المسيحية للقدس في العهدين القديم والجديد وعلى أنها منبت الطقوس الدينية ومقصد الحجاج.
٦. إن هناك تواجد مستمر للمسيحية في القدس عبر ألفي عام وإن الكنيسة المحلية الحاضرة في القدس مع جميع مؤمنيها حضوراً فعّالاً. «وهذا الحضور المستمر لجماعة مسيحية حية لا يمكن فصله عن الأمكنة التاريخية، لأنه من خلال «الحجارة الحية» تستمد الأماكن الأثرية المقدسة حياتها.
٧. للقدس طبيعتان: فمن جهة هي مدينة مقدسة بسبب ارتباطها بتاريخ الخلاص، ومن جهة أخرى وبالنسبة للمسيحيين المحليين، والمسلمين واليهود المحليين أيضاً، هي المدينة التي ولدوا فيها ومنها يعيشون.
٨. ومن ثم تعدد الوثيقة المطالب الشرعية للمسيحيين في القدس والمتمثلة بما يلي:

- حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة وحرية العبادة والحقوق من حيث الملكية والرعاية والعبادة التي اكتسبتها الكنائس عبر الفرامانات ونظام ال Status Quo.
- حق القدوم إلى القدس لأداء الحج.
- حق كل إنسان في حرية العبادة والضمير أفراداً وجماعات.
- الحقوق المدنية والتاريخية التي تمكنهم من الاضطلاع بواجباتهم الدينية والتربوية والطبية وسائر أعمال المحبة.

الحق في أن تكون لهم مؤسساتهم الخاصة من معاهد ومراكز ومؤسسات ثم تؤكد الوثيقة أن هذه الحقوق يجب ألّا تكون للمسيحيين كونهم مسيحيين بل كونهم مواطنين، يتمتعون بكافة الحقوق الأساسية الاجتماعية والثقافية والسياسية والقومية، مع اعترافهم بالحقوق المماثلة لأتباع الديانات السماوية الأخرى.

٩. وضع خاص قانوني وسياسي لمدينة القدس يعكس الأهمية العالمية للمدينة ويبين معناها.

ومن ثم تطالب الوثيقة:

- باشتراك «ممثلين عن الديانات الموحدة الثلاث بالإضافة إلى القوى السياسية المحلية، في تحديد هذا الوضع الخاص وتطبيقه».
- أن يلتزم المجتمع الدولي في تثبيت ديمومة هذا الوضع مع ضرورة إيجاد ضمانات دولية لذلك.

وإبان قمة كامب ديفيد أرسل بطاركة الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية والأرمنية في ٢٠٠٠/٧/١٧ رسالة إلى كل من الرئيس بيل كلينتون وايهود باراك وياسرعرفات تلخص ما جاء في وثيقة عام ١٩٩٤ مع إضافة بندين: إذ ناشد البطاركة الرؤساء «ألا تفصل الجماعات المسيحية في البلدة القديمة عن بعضها البعض» (كلام عن إلحاق الحي الأرمني بالجزء اليهودي). إننا نعتقد أن الحيين المسيحي والأرمني غير قابلين للتقسيم أو الفصل بل يشكلان وحدة مترابطة وموحدة بالإيمان الواحد».

كما اقترحت الرسالة إشراك البطاركة الثلاثة وحارس الأراضي المقدسة في قمة كامب ديفيد حيث يقرر مستقبل المدينة لضمان حقوق الكنائس الجماعية.

أما البيان الأخير والذي صدر عن رؤساء الكنائس المسيحية في الأرض المقدسة فقد جاء في ٢٠٠٦/٩/٢٩ ضمن سياق مختلف. فمع انهيار العملية السلمية وفرض سياسية الأمر الواقع تغيرت لهجة الكنائس.

ففي مقدمة الوثيقة تم التطرق إلى سياسة الواقع وتهويد المدينة، وفصل القدس عن محيطها وتعذر الوصول إليها، وإحاطة المدينة بالجدران، مما أفقدها مركزيتها ودعوتها. ودعا رؤساء الكنائس إلى أهمية التوصل إلى رؤيا موحدة ومشتركة مؤكدين أن إرادة الله أن يكون فيها شعبان وثلاث ديانات. كما أكدوا أن الأماكن المقدسة والجماعات التبشيرية صنوان لا يفترقان، ودعوا إما إلى أن تكون القدس موحدة تحت سيادة إسرائيلية - فلسطينية مشتركة على أساس المساواة، أو أن تقسم إذا أراد الشّعبان ذلك، مع سيادة كل منهما على القسم الذي يخصه. وانتهت الوثيقة باقتراح تشكيل لجنة لدراسة مستقبل القدس بحيث تكون الكنائس ممثلة بها.

مما تقدم يمكن أن نجمل الخطاب الكنسي تجاه القدس بما يلي:

١. **هناك نوعان من البيانات الكنسية عن القدس:**
النوع الأول هي البيانات التي راحت الكنائس توضح فيها موقفها تجاه القدس وحقوقها وتصورها لمستقبل المدينة المقدسة، مثل هذه البيانات كانت تصدر مترافقة مع الحراك السياسي على الساحة الإقليمية أو الدولية.
لذلك نرى أن أولى البيانات التي صدرت عن القدس كانت في عام ١٩٤٩، فأصدر البابا بيوس الثاني بيانه Redemptoris Nostri Cruciatus في ١٩٤٩/٤/١٥ أي في غضون أيام فقط بعد توقيع اتفاق الهدنة بين إسرائيل والأردن في ١٩٤٩/٤/٣ والذي سبقه اتفاق الهدنة مع لبنان ١٩٤٩/٣/٢٣ ومع مصر ١٩٤٩/٢/٢٤.

والشيء ذاته ينطبق على رسالة مجلس الكنائس العالمي والمؤرخة في ١٩٤٩/٦/١٣. لقد ساء التوقع بعد توقيع الهدنة - التي لم تكن سوء مقدمة لمباحثات سلام ستقودها الأمم المتحدة والقوى العظمى- حيث قاطعت إسرائيل الاجتماعات التي تلت الهدنة ، وقامت القوى العظمى الثلاث أمريكا وبريطانيا وفرنسا باتفاقية ثلاثية للحفاظ على الوضع السياسي القائم آنذاك.

أما المرة الثانية والتي حاولت الكنائس فيها توضيح موقفها تجاه القدس فجاءت متزامنة مع مسيرة أوسلو. لذلك جاءت هذه البيانات بين أعوام ١٩٩٤-٢٠٠٠. حاولت الكنائس من خلالها إسماع صوتها إلى المتحاورين بأن يكون مستقبل المدينة جزء من المباحثات الدائرة هناك.

أما النوع الثاني من البيانات فجاء كرد فعل على أحداث سلبية معينة رأت فيها الكنائس ما يشكل خطراً على الوضع القائم في المدينة. أمثلة على ذلك بيان مجلس الكنائس العالمي الذي جاء رداً على قرار الكنيست بضم القدس عام ١٩٨٠، أو بيان الكنائس رداً على احتلال نزل القديس يوحنا عام ١٩٩٠، أو على كتابة شعارات مهينة للمسيحية عام ١٩٩١، أو سياسات إسرائيل أحادية الجانب من تهويد للمدينة ومن ممارسات ضد سكانها العرب مسلمين أكانوا أم مسيحيين.

٢. ومن الملفت للنظر أنه لم تصدر عن الكنائس أية بيانات ما بين ٤٩-٦٧ أي إبان الفترة الأردنية.

٣. بالنسبة للمواقف المبدئية من القدس، يمكن إجمالها فيما يلي:

أ. يجب أن يكون للقدس وضع خاص(دون تحديده) بضمانات دولية.

ب. يجب الحفاظ على الوضع القائم Status Quo واحترامه، ويشكل هذا الموضوع هاجساً كنسياً دائماً. وترى الكنائس في هذا النظام نظاماً يمكن الركون إليه بما يخص العلاقة مع السلطات السياسية من جهة، وبما يخص حقوق الكنائس المختلفة داخل البناء الواحد(القيامة)، بالإضافة إلى أهميته لكنائس تشكل الأوقاف المسيحية جزءاً لا يستهان به من المدينة، وبالتالي فإن أي تغيير للوضع القائم سيكون له تبعات مالية جسيمة.

ج. يجب تأمين حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة هناك بالإضافة إلى تأمين حرية العبادة والحج.
(ويضيف الفاتيكان موضوع حرية الضمير) هذا الموضوع أيضاً مهم لكنائس لها امتدادات بشرية في المعمورة كلها وبالتالي التواصل مع أعضاء هذه الكنائس من العالم شيء أساسي. ولكن لهذا الموقف أيضاً أبعاد مالية، إذ يشكل الحج والسياحة الدينية مصدر دخل رئيس للكنائس في الأراضي المقدسة.

د. أهمية الحفاظ على الوجود المسيحي البشري في القدس. إذ تدرك الكنائس أن العالم الديموغرافي والبشري مهم لمستقبلها حتى لا تصبح كنائس حجر دون بشر.

٤. لم تتطرق الكنائس إلى طرح أية حلول سياسية للمدينة لكنها أكدت على أن القدس هي مدينة مقدسة لأتباع الديانات السماوية الثلاثة. وقد أضيف لهذه العبارة بعد إعلان الاستقلال ١٩٨٨، أن القدس هي مدينة لشعبين.
وفي عام ٢٠٠٦ فقط. تطرقت الكنائس إلى موقف سياسي إذ فضّلت أن تكون القدس موحدة تحت سيادة إسرائيلية فلسطينية مشتركة، مضيفة في الوقت ذاته «إلا إذا ارتأى الشعبان أن تكون لكل منهما سيادة على أحد شطري المدينة».

٥. من يتابع البيانات والمواقف الكنسية تجاه القدس من عام ١٩٤٩-٢٠٠٦ سيجد أن موقف الكنائس كان وما يزال في علاقة موازية لسياق العام والحراك الدولي والإقليمي والمحلي وبالتالي فلا يمكن فصل المواقف الكنسية عن الوضع السياسي القائم.

هجرة المسيحيين من فلسطين
أسباب ومسببات

مقدمة

إن الدارس لظاهرة الهجرة المسيحية من فلسطين يكتشف نمطين من الدراسات، يتمثل الأول في دراسة هذه الظاهرة في إطار الهجرة الفلسطينية بوجه عام دون الأخذ بخصوصية الظاهرة وما يتعلق ببعدها المسيحي، أو أن يحدث العكس بحيث يدقق الدراس في خصوصية الهجرة المسيحية دون أخذ الإطار الأوسع بعين الإعتبار. وينتج عن هذين النمطين تشويه للوقائع وتعميم للأسباب مما يفقد الدراسة أهميتها.

لذا رأينا أن نحاول تحليل هذه الظاهرة بإطارها العالمي أولاً ثم الفلسطيني ثانياً ومن ثم الانتقال لخصائصها المميزة كظاهرة منتشرة بشكل واسع بين المسيحيين، لفهم أسبابها ومسبباتها، متخذين الموضوعية في التحليل منهجاً مدركين أنه قد آن الأوان لوقفة مع الذات لاستخلاص النتائج والعبر، طامحين لإيجاد رؤية جديدة لوجودنا كمسيحيين على أرض فلسطين.

هجرة المسيحيين الفلسطينيين بإطارها العام

الهجرة ظاهرة عالمية، فهناك هجرة الريف إلى المدن، والشمال إلى الجنوب، وهجرة الأدمغة إلى الدول الصناعية، والهجرة ظاهرة قديمة، ابتدأت مع التاريخ، فتاريخ البشرية ما هو إلا سلسلة من الهجرات المتتالية، إذ لم يسلم منها بلد أو قارة ولم يخل منها قرن أو زمن.

والهجرة ظاهرة كتابية، فالدارس للكتاب المقدس لا بد وأن يلاحظ مركزية موضوع الهجرة فيه: فالسقوط في الخطية يصور كتهجير آدم من الجنة إلى الأرض، وتاريخ الخلاص يبدأ بدعوة من الله لإبراهيم بأن يترك أهله وبلده ويذهب إلى الأرض التي يريه إياها.

وتاريخ الفلسطينيين والإسرائيليين هو تاريخ جماعات مهاجرة سواء أكان من مصر أم من كريت، ويصور الكتاب المقدس الإنسان المؤمن بالسائح المهاجر الذي لا وطن له، بل هو جوال في أرض الله الواسعة، وكأن الخلفية البدوية لأشخاص الكتاب المقدس قد

أذكت سمة مميزة لأتباعهم الذين راحوا يرون حياتهم في حل وترحال، وهجرة وتجوال لا يستقر الإنسان منهم إلا متى استقر في قبره. والهجرة ظاهرة إنسانية، فهي تنبع من شوق الإنسان اللامتناهي إلى ما هو أحسن وأرفع، ومن طموح البشر إلى الأفضل والأسمى، وهي مرتبطة ببحث الإنسان الدائم عن لقمة العيش واستقرار النفس وتطور المعيشة، وهذا شان كل إنسان وجزء لا يتجزأ من حريته في الاختيار.

فلسطين ممر للشعوب والهجرات

إن الهجرة المسيحية من فلسطين هي بلا شك جزء من هذه الظاهرة العالمية، ولكن هذه الظاهرة وحدها لا تكفي لاستيعابها، بل إن الهجرة التي نحن بصدد تحليلها لهجرة من نوع خاص، كون تاريخ فلسطين تاريخ مميز يتسم بالهجرات.

هجرة المسيحيين ضمن الإطار الفلسطيني

تاريخ فلسطين الحديث مرتبط بحقيقتين هامتين:

الأولى: أنه تاريخ من عدم الاستقرار السياسي يتسم بالحروب والاحتلال، وما نجم وينجم عنه من تهجير مبرمج ومخطط له للفلسطينيين بغض النظر عن معتقداتهم الدينية. وخطورة المشكلة تكمن في أن نزيف الهجرة هذا ما زال مستمراً منذ ما يزيد عن المئة سنة.

الثانية: أما الحقيقة الثانية فتكمن في أن تاريخ فلسطين مرتبط بهجرة معاكسة، والتي هي جزء من الحركة الاستعمارية المعاصرة (أو الكولونية الجديدة) وما يترتب عليها من استيلاء مبرمج على المدن الفلسطينية واستيطان يهودي مدروس لأراضي سكانها الأصليين. وخطورة هذه المشكلة تكمن في أن هجرة اليهود إلى فلسطين ما زالت قائمة منذ أكثر من مئة سنة.

وقد عانى ويعاني من هاتين الحقيقتين المسيحيون والمسلمون على حد سواء، فنحن جميعاً في خندق واحد ونشترك في المصير الواحد وهذا ما تبينه الأرقام بوضوح: فعلى سبيل المثال لا الحصر ونتيجة للنكبة الفلسطينية هاجر وهجّر عام ١٩٤٨ حوالي ٦٠ ألف مسيحي، وما يزيد عن ستمائة ألف مسلم، أي كانت نسبة المهاجرين والمهجّرين من المسيحيين ما نسبته ١٠٪ مقارنة بعدد السكان في ذلك الوقت.

كما ويقيم اليوم حوالي ٥٥٪ من الفلسطينيين المسيحيين في المهجر(١٧٥ ألف مقابل ١٤٥ ألف بالداخل)، وهي نسبة قريبة لمجمل الفلسطينيين المقيمين في الخارج (٢,٩٣٢٠٠٠ بالخارج مقابل ٢,٢٠١٤٠٠ بالداخل وتساوي ٥٧,١٪) إذ تبين هذه الحقائق بوضوح لا لبس فيه أن ظاهرة الهجرة المسيحية من فلسطين هي ظاهرة ليست بشاذة على الشعب الفلسطيني، بل هي جزء لا يتجزأ ولا ينفصل عن هجرة الفلسطينيين بشكل عام.

ولكن رغم هذا يبقى هناك خصوصيات لظاهرة هجرة المسيحيين من فلسطين (تميزها من هجرة إخوانهم المسلمين). فهجرة المسيحيين من فلسطين أصبحت تهدد الوجود المسيحي الفلسطيني بشكل مخيف وملفت للنظر، خاصة وأن المسيحيين ما زالوا مهددين بالهجرة أكثر من غيرهم وذلك للأسباب التالية:

خصوصيات الهجرة المسيحية:

١. عوامل إجتماعية:

أ. ديموغرافية الفلسطينيين المسيحيين:
من الملاحظ أن غالبية المسيحيين في فلسطين كانوا وما زالوا يسكنون المدن دون الأرياف. وعادة ما تكون الأرياف مهددة بالهجرة الداخلية (من الريف إلى المدينة) أما سكان المدن فمهددون أكثر من غيرهم بالهجرة إلى الخارج.

ب. الطبقة الإجتماعية:
بما أن غالبية المسيحيين هم سكان مدن (حضر)، فهم عادة ما ينتمون إلى طبقة معينة في المجتمع الا وهي الطبقة الوسطى، وتاريخياً ارتبط المسيحيون العرب بطبقة الحرفيين فكان أغلبهم أصحاب مهن وحرف يدوية وهذا ما تظهره الأسماء العربية المسيحية بوضوح (حداد، نجار، صائغ، ترزي، قنواتي وغيرها).

وقد طرأ تغيير جذري على الانتماء الطبقي / المهني للمسيحيين في فلسطين بعد قدوم الإرساليات التبشيرية. فبعد تأسيس العديد من المدارس، والكليات والجامعات المسيحية في المدن الفلسطينية، التي كان يزورها أكثر من ٧٠٪ من السكان المسيحيين، نرى توجهاً كبيراً نحو الدراسات الأكاديمية العديدة كالطب والهندسة والمحاماة... الخ

ومن المثبت أن أصحاب الطبقة الوسطى سواء أكانوا من الحرفيين المتخصصين أم من الأكاديميين أو ممن يعرفون بأصحاب الياقات البيض هم الأكثر تأثراً بالهجرة إلى الخارج وذلك لعدم ارتباطهم مهنياً بالأرض (كالمزارعين أو الملاكين مثلا) هذا من جهة، ومن جهة أخرى كثرة الطلب والفرص المغرية عليهم في الخارج. فصاحب الياقة البيضاء معرض للهجرة أكثر من غيره خاصة وأن ما يملكه من علم أو فن إنما هو مزروع في عقله ويده ويستطيع أن ينقله معه إلى الخارج دون جهد أو تعب ودون الحاجة إلى الاكتراث بأرض أو وادي حجارة عليه أن يبيعها ليهاجر.

ج. عامل اللغة والتواصل:
ومما سهل عملية هجرة هذه الطبقة إلى الخارج هو عامل اللغة، إذ اجتهدت الكنائس المسيحية ومنذ القرن الماضي بإنشاء وإقامة مدارس خاصة دأبت على تعليم لغات أجنبية إلى جانب العربية. وقد تعلم المسيحيون العديد من اللغات الغربية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية واتقنوها، واجتمعت هذه اللغات لتكون جسراً يربط المسيحيين الفلسطينيين بالغرب ويسهل عليهم عملية الاندماج تلك.

فاللغة وسيلة اتصال، وهي انعكاس ومدخل لحضارة الشعب وتراثه إن أتقنها الإنسان ولج من خلالها إلى المجتمع وحضارته. وهكذا صار عامل اللغة الأجنبية ـ وهو عامل مهم لفلسطين كونها بلداً سياحياً ـ سيفاً ذا حدين، فهو أغنى الكنائس وأفقرها في الوقت نفسه، قواها وأضعفها، منحها إمكانيات جديدة في اللحظة التي سلب منها خيرة أبنائها.

د. عامل الإنجاب:

سبق وأن بيّنا أن نسبة المقيمين في الخارج من المسيحيين تساوي إخوانهم المسلمين أيضاً. ولكن هناك حقيقة أخرى لا بد أن نأخذها بعين الاعتبار ألا وهي أن نسبة المواليد عند المسيحيين لا تساوي النسبة عند إخوانهم المسلمين.

فالعوامل الثلاثة الأولى التي سبقت وأن ذكرتها (ديموغرافية، الطبقة الإجتماعية، إتقان اللغات الأجنبية، والتواص مع الحضارات الغربية) كل هذه أثرت على نظرة المسيحي الفلسطيني إلى الحياة، فجعلته ينظر نظرة جديدة إلى الزواج(إرتفاع سن المتزوجين) ونظرة جديدة إلى الإنجاب، إذ لم يعد يرى في كثرة الأولاد بركة أو مكسباً ، ولم يعد يقتنع بعبارة (يأتي الولد ورزقته معه) بل وأيضاً أخذ ينظر إلى الأمر على أنه حمل ثقيل ينوء تحت أعبائه حاملاً همومه ومشكلاته على كاهله ، ولم يعد يرى نفسه قادراً على إعطاء أولاده الكثر حقهم في العلم والعناية والرعاية الكريمة.

لذلك يكتفي المسيحيون بأعداد قليلة من الأبناء مقارنة مع إخوانهم المسلمين وهي ما تظهره الإحصائيات أيضاً إذ بلغت نسبة الخصوبة سنة ١٩٦٧ كما يلي:

مسيحيين القدس	مسلمين القدس	مسيحيين الضفة	مسلمين الضفة
٤,١	٥,٣	٤,٤	٥,٠

هذه الحقيقة تعني أن نسبة المسيحيين من مجموع السكان في تناقص مستمر، مما لا يعطي المسيحيين فرصة في تعويض أعداد المهاجرين منهم، كما يحدث عند إخوانهم المسلمين. فاجتماع عامل الهجرة مع قلة نسبة المواليد يشكلان معاً تحدياً مخيفاً للوجود المسيحي في الشرق الأوسط عامة وفي فلسطين خاصة. فعامل الإنجاب سيف ذو حدين، فمن ناحية يعتبر ضرورة حضارية في عالم مهدد بقنبلة سكانية، وفي الوقت نفسه قاتل للمسيحيين العرب.

ه. النظرة إلى الغرب:

عندما قدمت الإرساليات التبشيرية إلى فلسطين، كان الوضع في الإمبراطورية العثمانية متردياً. فالفقر والمرض كانا متفشيين، والمحسوبيات والرشوات منتشرين، ولم تكن هناك أية بنية تحتية سواء أصحية كانت أم تربوية.

أما المؤسسات في فلسطين فكانت تملك الخبرة الهائلة والإمكانيات والتنظيم اللازمين، فأسست المدارس وبنت المستشفيات على أسس حديثة، كما وشيدت العمارات الشاهقة، وضمت برامج مدروسة، واهتمت بالنظافة والنظام، وأدخلت الأجهزة الحديثة، وهذه الخدمات كلها لم يحظى بها سكان فلسطين من العثمانيين.

هذه العوامل معاً خلقت عند العرب عامة وعند المسيحيين منهم شعوراً بتخلف الشرق وإحساساً موازياً بتفوق الغرب، مما جعلهم ينظرون للغرب وكأنه أعلى مرتبة وأعظم شأناً وأكثر تطوراً. وقد نتج عن هذه التجربة ميل للعقل الباطني نحو الغرب نحو كل ما هو أجنبي. ومن الطريف أن تلاحظ مثلاً أن كلمة أجنبي والتي لها في المدلول الأوروبي معنى يكاد يكون سلبياً فهناك كره وخوف وأشياء من الأجانب وتقاليدهم، هذه الكلمة عينها لها في الذاكرة العربية بشكل عام والمسيحية بشكل خاص مدلول إيجابي جداً (فالأجنبي يُحترم ويُحب ويُخدم، والمنجات الأجنبية تعرف بأنها أكثر جودة).

ومع أن هذه النظرة إلى الغرب تشهد اليوم تغييراً ملحوظاً وأغلبه من الحركات الإسلامية على أن الغرب يمتاز بالانحطاط الأخلاقي، إلا أن شعوراً ما زال يسود الكثير من الأوساط العربية والمسيحية بأن الشرق هو الذي ما زال بعيداً عن التطور والرقي وليس الغرب ، ويرى الكثيرون بأن ما يجري اليوم في الشرق لدليل على أن الفجوة بين الشرق والغرب في ازدياد مستمر، وأن التخلف قد كتب على مجتمعاتنا العربية.

و. شبكات الجذب:

المسيحيون العرب كانوا من طلائع المهاجرين من الإمبراطورية العثمانية. وقد شكل هؤلاء المهاجرون في العالم الجديد ما يشبه الشبكة التي صارت إحدى عوامل الجذب الرئيسية إلى المهجر. فالهجرة بدأت بأفراد، سرعان ما استدعوا عائلتهم بعد أن شعروا بالاستقرار والأمان، وهذه الخطوة جذبت بدورها عائلات أخرى وهكذا دواليك.

فمشكلة الهجرة أشبه ما تكون بعقد ما أن ينفك خيطه تنفرط حباته وتتداعى رويداً رويداً وبشكل مستمر. وكون ظاهرة الهجرة بين المسيحيين في فلسطين قديمة، أعطاها زخماً خاصاً، فمنذ أواخر القرن الماضي نشأت في المهجر أحياء وضواح مسيحية فلسطينية شكلت في السنين اللاحقة وعاء راح يحتوي ويستقبل أعداداً كبيرة من المهاجرين، إذ ساعدت الجاليات المهاجرة في جذب المزيد من المهاجرين، بأن أمنت لهم في كثير من الأحيان الإقامة والعمل والجو المناسب وخففت من شعورهم بالغربة. فشبكات الجذب تزيد أعداد المهاجرين وتقلل أعداد المقيمين فتكبر الفجوة بينهما.

٢. عوامل نفسية:

المسيحيون الفلسطينيون الذين هم جزء لا يتجزأ من الشعب العربي الفلسطيني يشكلون اليوم ما يقارب ٦,٤٪ من الشعب الفلسطيني، ونسبتهم اليوم في الضفة

والقطاع وفي إسرائيل لا تتعدى ٢,٤٪ من مجموع السكان ،هم جزء لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني ولكنه جزء صغير.

فالمسيحيون أقلية عددية وليست نوعية فالأقليات غالباً ما تكون مهددة بالهجرة أكثر من غيرها وذلك لسببين:

١. عقدة الأقلية التي نجدها في سيكولوجية الأقليات، والتي ترتبط عندهم بالخوف من الذوبان والاضمحلال بل وأحياناً التهديد من قبل الأكثرية.
٢. غياب نظام ديموقراطي شامل يحافظ على التعددية في البلدان الشرق أوسطية، كغنى تراثي وحضاري، يضمن حقوق المواطنة للفرد بغض النظر عن معتقدات الفرد الدينية أو انتمائاته الحزبية أو توجهاته السياسية.
٣. فالفرد ما زال غير معروف بانتمائه الإنساني بل بدينه أو حزبه، ولهذا انعكاسات اقتصادية (كتوزيع المناصب) وأخرى سياسية (كهيمنة الحزب الواحد) وأخرى نفسية (كالشعور بالإضطهاد).

ب. عامل الإحباط:
إن استمرار الصراع العربي الإسرائيلي، وعدم حل القضية الفلسطينية حلاً عادلاً وشاملاً لما يزيد عن الخمسين سنة، بالإضافة إلى الأزمات الإقتصادية المتتالية، وأزمة الديمقراطية وعقده الأقلية كل هذه العوامل مجتمعة تولد في الكثير من الفلسطينيين شعوراً باليأس والإحباط.

في أكثر الأحيان يلجأ الفلسطيني المسلم إلى الدين ويلحق بالحركات الأصولية كحركة احتجاج على الوضع القائم. أما المسيحي الفلسطيني والذي يصاب بالإحباط، فلا يلجأ إلى الدين، وإنما إلى الهجرة، فيهرب من خلالها عن الواقع، وهذا مرده إلى أسباب تاريخية مرتبطة بالدور المسيحي في تطور فكرة القومية. وهذه النقطة مهمة: فهجرة المسيحيين ليست رد فعل على انتشار الحركات الأصولية، كما يدّعي بعض الصهاينة، بل هي حركة موازية للمد الأصولي.

٣. عوامل تربوية:

وهي عوامل لم تؤخذ حتى الآن مأخذ الجد، إذ إنني أعلم على اليقين بأن الهجرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمفاهيم تربوية خاطئة:

أ. التربية البيتية:
العناية بالأطفال واجب مقدس، ولكن مفهوم الكثير من المسيحيين عن الحياة الكريمة الواجب توفيرها للأبناء كثيراً ما يساء تطبيقها، فنرى الكثير من المسيحيين يهتمون بأبنائهم اهتماماً غير صحي ومبالغ فيه، كقولهم : (العذراء تحرسك والخضر يحميك)، مما يجعل أبناءنا «دلكات» لا يحتملون الضغط الكثير ولا يعتمدون على أنفسهم في الحياة، بل انطوائيين يخشون مواجهة الحياة القاسية بصبر وجهد وكد ، فالحياة قاسية دوماً، وأحياناً كثيرة تكون الهجرة إحدى صور الهروب من واقعهم.

ب. التربية الكنسية:
للتربية الكنسية سلبيات كثيرة، خصوصاً ما حصل من تنافس طائفي في القرن الماضي وما ارتبط به من محاولات لإغراء المسيحيين للالتحاق بهذه الطائفة أو تلك. هذا التنافس السلبي أدى إلى نتائج مخيفة عند المسيحيين الفلسطينيين. فقد دللت الطوائف أتباعها، وحاولت أن تؤمن لهم الملبس والمأكل، والبيت والمدرسة بل والعمل أيضاً مما خلق اتكالية مخيفة يلقونها على كنائسهم.

فقد شب المسحيون على شعور يراودهم بأنهم الطفل المدلل الذي يحظى بكل ما يطلبون، وأنهم أسياد وجدوا ليخدموا، وقلما تعلموا أن الإيمان ما هو إلا تضحية لبناء الكنيسة والمجتمع ولخدمة الآخرين، أقولها والأسى يعتصر قلبي.

إننا ككنائس وكرعاة ربينا أجيالاً استهلاكية لم تتعلم الإلتزام والخدمة، واللوم يعود على الكنيسة وعلى الغرب بالذات، مما ساعد على الهجرة خالقاً عند الكثيرين انطباعاً أن الغرب يلبي حاجات الإنسان كلها.

٤. عوامل كنسية:

أ. اللاهوت المستورد:
ونحن في سياق الحديث عن الكنيسة لا بد أن نعترف أن اللاهوت (أي العلم الذي عليه أن يربط الإيمان المسيحي بالواقع المعاش) المستعمل في أكثر الفئات ما زال لاهوتاً غريبا مستوردا في أغلب الأحيان ولهذا غير مرتبط بواقع المسيحيين اليومي بل كان لاهوتاً غريباً عن بيئتهم، عالج مشاكل ليست بمشاكلهم، وأحياناً كثيرة ليست هي لغة البلاد.

بل وحتى الصور في كنائسهم ترسم المسيح أوروبياً بعيون زرقاء وشعر أشقر وكأنه إيطالي، ألماني، غربي أكثر مما هو شرقي، مما يولد في العقل الباطني شعور بأن الإيمان المسيحي هو ظاهرة غربية، مستوردة، وهذا ما يشد المسيحي الشرقي إلى الغرب وكأن أصوله هناك. ومما يزيد الطين بلة أن المناهج المدرسية ككتب التاريخ مثلاً بل وحتى كتب التعليم الديني لا تتطرق بتاتاً إلى تاريخ العرب المسيحيين في الشرق، فيبقى المسيحيون العرب جاهلين بأحوالهم وجذورهم العربية، أميين لا يعرفون الكثير عن واقع المسيحيين الفلسطينيين وفي تاريخهم يشكل عاملاً مهماً يجذب المسيحي ولو في عقله الباطني إلى الغرب.

ب. الرئاسة الغربية:
لزمن ليس ببعيد كانت معظم رئاسات الكنائس المسيحية في فلسطين هي رئاسات أجنبية، وما زال بعضها غير مهتم بالشعب المسيحي بتاتاً لا بل نصب من نفسه بديلا عنه في إدارة أملاك الكنيسة، وبعضه الآخر ساعد عن قصد أو بغير قصد العديد من المسيحيين على الهجرة للغرب.

وقلما حاولت هذه الرئاسات التشديد على الصمود المسيحي والشهادة المسيحية في الشرق. ومن الملاحظ أن تعريب العديد من الرئاسات المسيحية في فلسطين (اللاتينية، الأسقفية واللوثرية) رافقه اهتمام أوسع بالوجود المسيحي في الشرق مما ساعد على خلق حالة من الاغتراب بين المسيحي ورئاسته الروحية، وبينه وبين كنيسته ومجتمعه، ساعد على تفريغ الكنيسة وهجرة أتباعها.

خاتمة

إن ظاهرة هجرة المسيحيين من الشرق الأوسط بشكل عام ومن فلسطين بشكل خاص لظاهرة مقلقة خاصة لما لها من انعكاسات مميتة على المجتمع الفلسطيني بشكل عام وعلى الكنيسة المشرقية بنوع خاص، وذلك على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية والدينية والحضارية، فإن اختفى المسيحيون في فلسطين ضاع جزء مركزي من شعبنا الفلسطيني واختفى صوت أصيل من جوقة أبناء شعبنا، وانتفى عنصر حضاري غني بتراثه وثقافته من مجمل حضارتنا العربية، وانكسر جسر متين ربط الشرق بالغرب.

وإن اختفى المسيحيون من فلسطين صارت الأرض المقدسة خرب وأطلال والكنائس والمباني أماكن للتصوير وليس للعبادة، للتنزه وليس للشهادة، فالأرض المقدسة هي مقدسة بحجارتها الحية ببشرها وليس بحجرها، بجموعاتها المؤمنة وليس باحتياجاتها.

إن ترك المسيحيون فلسطين ضاع تراث ألف وأربعمائة عام من تراث مسيحي إسلامي مشترك، كان لا بد وأن نبرزه للعالم كشاهد على التفاعل والتعايش والتسامح بين الديانات ، ونتشارك معه بهذا الإرث العالمي .

رغم هذه الصورة القاتمة فهناك تطورات عالمية ومحلية قد تحد من حجم الهجرة وقد تدفع المسيحيين الفلسطينيين إلى البقاء بأرضهم ووطنهم، فالقلاقل العالمية والحروب الأهلية في ما عرف بالمعسكر الشرقي والمشاكل الاقتصادية في الأمريكيتين والتطرف العنصري في أوروبا الغربية، كلها تطورات لا تشجع على الهجرة.
كما وأن مسيرة السلام وإن نجحت في حل معقول للقضية الفلسطينية وفي إقامة نظام شرق أوسطي جديد، يساعد على الاستثمار ويشجع تطور الاقتصاد ويشغّل طاقات البلد الطبيعية والبشرية ويقيم نظماً ديموغرافية حقيقية تثبت بأن المستقبل هنا وليس في الغرب.

كما وأن تعريب الكنائس العربية التي بدأ بالرئاسات والمؤسسات وامتد ليشمل اللاهوت والتربية، هذا التعريب لا بد وأن يصير عاملاً مهماً يربط المؤمن بكنيسته ومجتمعه ووطنه، ويعطيه القوة كي يكون كما قال عنه سيده أنه ملح الأرض ونور العالم.

ثورات العالم العربي والمسيحيون
متغيرات السياق والأدوار

ليس من قبيل الصدفة ألّا يتضمن عنوان مقالتي اصطلاح «الربيع العربي» المتداول. لقد عزمت على عدم تبني هذا التعبيرٍ لما ينطوي عليه من دلالات توحي بكون الأحداث الجارية إيجابية بالضرورة. وبدلاً من التسليم بذلك، قررت تناول المجريات الحالية في العالم العربي من منظور ديالكتيكي يحلل الأمور بشكل أعمق: فبحسب رأيي، ما زالت الثورات العربية مفتوحة على كل الإحتمالات، وتكتنفها الوعود والأوهام.

لكي نفهم حيثيات الوضع الراهن، ينبغي معرفة من أين أتينا، أملاً باستبصار معالم المراحل اللاحقة. وإذا راجعنا تاريخ الشرق الأوسط خلال القرن الماضي، سنجد أنفسنا أمام ثمان محطات حاسمة ساهمت في صياغة تاريخ المنطقة، وصولاً إلى اللحظة الراهنة.

السياق المعاصر

١. غربت شمس القرن الثامن عشر على الشرق، والمشرق غارق في بحر من الأديان.. كان الدين هو البناء الأساسي والركن الرئيسي لهذا المجتمع، بل إننا نستطيع القول بأن المجتمع الشرقي كان حتى نهاية القرن التاسع عشر مجتمعاً متديناً. بلا شك بدأت الحداثة في الشرق الأوسط في فترة تزامنت مع مرحلة الحداثة الكلاسيكية في أوروبا والمتمثلة في الثورة الفرنسية، حيث أن السنة التي حطّ فيها نابليون بأقدامه في الشرق، هي بداية مرحلة الحداثة هنا وخصوصاً ما تبعها من ثورة محمد علي و إبراهيم باشا والتي قادت إلى سلسة من الإصلاحات السياسية والتي مهّدت لقدوم الإرساليات المسيحية الكاثوليكية والإنجيلية إلى الشرق الاوسط.

ومع قدوم الإرساليات الأجنبية بدأت المظاهر الأولى للتحديث (Modernization) تنتشر في الشرق الأوسط: فأنشئت المدارس الحديثة، وأتيح المجال للإناث للإنخراط في الدراسة، وشيّدت المستشفيات الحديثة، وراح الوعي الصحي ينتشر ، كما أقيمت المدارس والمعاهد الصناعية لتؤهل جيلاً جديداً من أصحاب المهن والحرف لسوق حرفية

جديدة أخذت بالتبلور، وبالتالي لعبت الإرساليات الأجنبية دوراً في نقل المجتمع من الزراعة إلى الصناعة وإن كانت الصناعة الخفيفة منها. وواضح أن الإنجيليين قد رأوا في أنفسهم دعاة للحداثة، وآمنوا أنّهم أداه تنوير في مجتمع ساده الجهل، ولم يكن أي تعارض بين الإيمان والحداثة، بل رأوا الإيمان والحداثة وجهان لعملة واحدة، وهذا ما يظهر جلياً في الترانيم الإنجيلية:

فأنشد إبراهيم عطية (٢/٢٥١)

كم من ألوفٍ في الورى أجمع ... في ظلمة البطلِ
إلى متى يا رب لا ترفع ... براقعَ الجهل

ونظم سليم كسّاب (٣/٢٢٧)

مثل نور الحق أيد ... في ذرى هذي الرّبوع
وظلام الجهل بدد ... عن حمانا يا يسوع

ولم يكن الجهل يكمن في الأمية فحسب بل تعداها إلى الفرقة والتعصب والطائفية. فبعد المذابح اللبنانية كتب بطرس البستاني يقول:

«فيا أبناء الوطن! إن الخراب والدمار الذي حل ببلادنا هذه لا يوجد له نظير في التاريخ وأسبابه غير مجهولة لدى الأكثرين منكم، وهو مما يوجع قلب كل ناظرٍ ومحب للوطن. .. يا أبناء الوطن ! انكم تشربون ماء واحدة وتتنسّمون هواء واحداً ولغتكم التي تتكلمون بها وأرضكم التي تطئونها ، وصوالحكم وعاداتكم فهي واحدة. واذا كنتم لا تزالون الى الآن سكارى من شرب دم إخوتكم في الوطن او طائشين من عظم المصاعب الواقعة عليكم فلا بد من أنكم عن قليل تستفيقون من هذه الغفلة وتدركون معنى هذه النصائح»

«وهذا المبدأ الحيواني الخبيث الموروث من البرابرة كثيراً ما رفع رأسه وهاج مزبداً في أحسن أزمان هذه البلاد وأكثرها راحة ونجاح فأوقع فيها الخراب والوبال وبدد المال والعيال.»

لم ينجرّ المسيحيون وراء العواطف المستعرة بل أطلقوا رؤية لعالم شرق أوسطي جديد. ولكن لا يخفى على أحد أن الانجيليون الأوائل كانوا سذجًا بعض الشيء ولسنا اليوم بأحسن حال منهم. هذا ما يظهر جليا في قول بطرس البستاني:

«يا أبناء الوطن! الفظائع والمنكرات التي ارتكبها أشقياؤنا هذه السنة في ظرف مدة قصيرة وصلت أخبارها إلى أطراف المسكونة، فكان تأثيرها الغم والشفقة من الجهة الواحدة، والغيظ والغضب من الجهة الأخرى، وذلك في كامل العالم المتمدن. فترون الإحسانات قادمة من كل جهة لإغاثة المحتاجين ، والجيوش تتوارد من كل قطر لوقاية الضعفاء وتأديب المذنبين والمعتدين».

وحتى يومنا هذا ما زالت جيوش الغرب تتوارد «لتحمي الضعفاء» ولتجلب لنا «الديمقراطية» وتقدم المعونات الإنسانية للمنكوبين.

٢. ثم يبدأ القرن العشرين في الشرق الأوسط بتقسيم تركة الإمبراطورية العثمانية بعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى.فمن جهة راح البريطانيون والفرنسيون أخيراً يقطعون الوعود للعرب بالتحرر أخيرًا من نير العثمانيين بينما راح كل من سايكس و بيكو و بلفور يعدّون الخطط لتقسيم أوصال هذه المنطقة بحسب مصالح الدول الأجنبية وزرع دولة يهودية في عقرها للاستئثار بمواردها وإحكام السيطرة عليها في حقبة تاريخية اتسمت بالاستعمار الأوروبي لدول الجنوب.

في هذة الفترة بالذات تعلم المسيحيون أن ما يحرك الحكومات الأوروبية هي ليست العواطف المسيحية بل المصالح السياسية. ويحضرني هنا رسالة خطها مسيحي أرمني ونشرت في جريدة زيورخ الجديدة والتي أعرب فيها عن امتعاضه من الحلف الألماني العثماني وسكوت الألمان عن مذبحة الأرمن. وفي هذا السياق يتبين للمسيحيين - دون أدنى شك- أن الدول التي تدعي المسيحية إنما ترى في المسيحيين الشرق أوسطيين حجارة على رقعة شطرنج ليس إلاّ، تحركها متى شاءت وتستبدلها عندما تفي بغرضها. أو تنجز ما أمرت به. وما أشبه الأمس باليوم.

٣. ومع منتصف القرن العشرين، نرى كيف أن كافة زعماء المنطقة الذين يتم إسقاطهم اليوم وصلوا إلى السلطة من خلال ثورات تحرر وطني في تلك الدويلات التي أوجدها الاستعمار الأوروبي. لقد كانوا «الثوار» قبل ٤٠ عاماً، وحملوا معهم وعود الاستقلال من «الغرب الاستعماري»، مبشّرين بوعود «الوحدة العربية»، والاشتراكية، وبتحقيق حياة أفضل لعامة الشعب. ينطبق ذلك على القذافي، وعبد الناصر، ومبارك لاحقاً، وبورقيبة وبن علي فيما بعد، وحافظ الأسد، وحتى منظمة التحرير الفلسطينية، هنا أيضاً نلاحظ انخراط المسيحيين في حركات التحرر خاصة في الدول التي كان الوجود المسيحي فيها واضحاً على سبيل المثال لا الحصر، أحزاب البعث وأحزاب اليسار الفلسطيني، الأردني والمصري.

٤. أما المحطة الرابعة فجاءت في أعقاب النكبة عام ١٩٤٨ وما تبعها من نكسة عام ١٩٦٧، والتي أسفرت عن هزيمة مختلف هذه القيادات على يد إسرائيل. كانت تلك المرة الأولى التي وجدت فيها الأمة العربية نفسها أمام أوهام الثورة. فقد انتهت الثورات الواعدة بتبدد الآمال والهزيمة القاسية. وبالتالي يمكن القول أن حالة الهزيمة شكلت ملامح العالم العربي خلال السنوات الأربعين المنصرمة. ولقد شكلت النكبة والنكسة التي تلتها عقدة أوديب في المجتمعات العربية. وهنا تعلمت الشعوب أن الوعود البراقة والاحلام الوردية إن لم تقترن بالأفعال فهي أفيون الشعوب.

٥. ولكن وبالتزامن مع الهزيمة العربية الناصرية عام ١٩٦٧ كانت قوة عربية جديدة آخذه في التبلور والتي جلبت معها وللمرة الأولى في التاريخ تغييراً في مركز

الثقل العربي الذي راح رويداً رويداً ينتقل من بلاد الهلال الخصيب إلى البادية المقفرة حيث الرمال الذهبية التي أنتجت ما يسمى بالبترو دولار، وحيث اكتشف النفط كسلاح دولي.

ومع البترو دولار راحت ثقافة البادية تزحف على المناطق الحضرية وتبسط نفوذها لتنشر قيم التصحر في بلاد الهلال الخصيب حيث نشأت المسيحية وترعرعت.

٦. جاءت المحطة الرابعة عام ١٩٧٩، لترتدي عمامة دينية هذه المرة، حيث انطلقت الثورة الإسلامية في إيران قبل ٣٠ عاماً، لتطيح بديكتاتورها: «الشاه». وهذا دليل على أن إيران هي الدولة السباقة في المنطقة في بزوغ «الربيع» فوق أرضها، وحدث ذلك من خلال إسقاطها لنظام مستبد وتبشيرها بوعود الدولة الإلهية، وإصرارها على تصدير الثورة إلى الدول الإسلامية المحيطة بها.

٧. جاءت لحظة الحسم وبرزت المحطة الخامسة في الشرق الأوسط عام ١٩٨٢. ولا أشير هنا إلى الحرب الأهلية في لبنان، بل إلى ثورة من نوع آخر كانت، حسب رأيي، أهم من سابقتها بكثير، ولكن لم يعلو ضوضاؤها، ولم تنحصر في نطاق العالم العربي، بل تعدته إلى سائر الأقطار الأخرى، وأقصد هنا الثورة الإلكترونية التي أخذ وهجها يسطع عام ١٩٨٢. وإن انتقال العالم من الآلة الطابعة إلى الحاسوب ترك بصمات أعمق بكثير من الجانب التقني البحت، وقد أسهم ذلك في تغيير الاقتصاد العالمي برمته، وأثر على عملية التعليم وتبادل المعلومات، وكانت هذه الثورة الوحيدة من نوعها التي لم تمر عبر العالم العربي، بل تجاوزت المنطقة العربية إلى مناطق أخرى . وإذا ما نظرنا إلى «تقرير التنمية البشرية العربية (٢٠٠٣)» الصادر عن الأمم المتحدة، فإننا نلاحظ في أحد الجداول أنه حتى عام ١٩٨٢، كانت التنمية في العالم العربي تتم بموازاة بقية العالم النامي. إلا أن تراجع العالم العربي في هذا المضمار كان واضحاً ابتداء من العام ١٩٨٢، ولم تدرك الحكومات العربية أهمية هذه الثورة، وبالتالي فات القيادات العربية فرصة التأثير على المستقبل.

في هذا السياق الجديد لم يعد باستطاعة مسيحيو الشرق من لعب الدور الذي وقع عليهم في القرن التاسع عشر... فلا المدارس المسيحية ولا معاهدها أصبحت قادرة على التأثير الجدي في المجتمعات العربية بسبب الكم المسيحي المتناقص، وبسبب إفتقار هذه المؤسسات إلى القيادات المؤهلة الفاعلة، مما أدى ذلك إلى افتقار المؤسسات المسيحية إلى الحيوية والديناميكية والنوعية المطلوبة للنهوض بمجتمعاتها، كما لم تستطع هذه المؤسسات أن توظف هذه الثورة الجديدة لنهضة المنطقة وازدهارها.

٨. وأخيرًا وليس آخراً شهد العالم الأوروبي إنحساراً للوجود المسيحي فيه، حيث تم فصل الدين عن الدولة، وضعفت المبادئ العلمانية، وتلاشت التربية المسيحية عند الشباب مسببة ما يشبه القطيعة مع الحضارة المسيحية، وفقدت الكنائس جزءاً لا يستهان به من مصادرها المالية، مما تسبب في ضعف الإمدادات المالية للكثير من

المؤسسات المسيحية الشرق أوسطية. وحدث هذا بالتزامن مع ما يسمى بالصحوة الاسلامية في هذة المنطقة بالذات (تفاوت زمني وجغرافي في الوعي الحسي).

كانت هذه لمحة عامة عن بعض المحطات التي تركت بصمات واضحة على حاضرنا. غير أن الحكاية لا تنتهي هنا. فالقرن العشرون تمكن من صياغة معالم سفر الخروج: فالجيل القديم الذي «خرج من مصر» خلال هذه الثورات «مات في الصحراء» وهرِم وهو ينتظر لحظة رؤية «أرض الميعاد». وفي الصحراء ذاتها ولد جيل جديد وبعد مرور الوقت، التفت هذا الجيل حوله، وتُرى ما الذي رآه أمامه؟

السياق الراهن

١. إن الرؤية التي اشترك المسيحيون في صياغتها وبلورتها في القرن التاسع عشر، لم تتجسد حقاً ولم تتجذر في المنطقة العربية. فالوحدة صارت شعاراً ليس إلا، والحواجز العرقية والدينية والطائفية بقيت مترسخة في العقل الباطني لشعوب المنطقة. وأفاق الجيل الجديد الذي ولد في الصحراء على أقطار تحيط بها الحدود وتقطع أوصالها الحواجز. وصار لا بد للمرء أن يكون أجنبياً في الدول العربية كي تصان كرامته ويحظى بمرتب يليق بشهادته.

لم يحظ الجيل الجديد في العالم العربي بمعاينة ثورات التحرر الوطني السابقة الذكر، إن كل ما تبقى له من إرث هذه الثورات كان أنظمة قمعية قائمة على الأجهزة الأمنية التي راحت تنغص على الشباب حياتهم. إن ما عاصره هذا الجيل وعاينه أيضاً هو إقدام الأنظمة الحاكمة على إدارة الأوطان وكأنها ملكيتها الخاصة، فقد شاع قيام الآباء بتوريث مقاليد السلطة لأبنائهم، حتى في الدول ذات التوجه الاشتراكي، ومن أمثلة ذلك استحواذ زوجة «س» من الزعماء على ٧٠٪ من اقتصاد الدولة، واحتكار شقيق «ص» جزءاً هائلاً من تجارة الدولة، وغيرها من الحالات الكثيرة التي نحدّث بها ولا حرج . إن هذا الجيل الذي «ولد في الصحراء» فقد الثقة في أنظمته، ويكفي أن نذكر أنه قبل قرابة شهر من اندلاع الثورة، قمنا بدراسة حول «الممارسات الثقافية لدى الشباب الفلسطيني»، ليتبين لنا أن ١٨٪ فقط من الشباب الفلسطيني له ارتباطات، بشكل أو بآخر، بالفصائل السياسية، أما الغالبية الساحقة من الشباب، فقد عبرت عن عزوفها عن السياسة، وعدم رغبتها حتى بسماع كلمة «سياسة». الأمر الذي يدلل دون شك على انتشار خيبة الأمل بين قطاع الشباب.

٢. سمع هذا «الجيل (الجديد) الذي ولد في الصحراء» منذ نعومة أظفاره عن العدوان الإسرائيلي، وساد شعور في أوساطهم بأن حرب ١٩٦٧ ما زالت مستعرة، وشاع العزف على وتر كون الدول العربية منهمكة في تحرير فلسطين. ومع ذلك، وعلى مرأى ومسمع هؤلاء الشباب، اندلعت الانتفاضة الثانية، وتم العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، وشعر هؤلاء الشباب باستشراء مشاعر الذل والمهانة في صفوفهم وهذا ليس بالأمر السهل بالنسبة لهم.

٣. لقد شب هذا الجيل الجديد الذي «ولد في الصحراء»، ليرى مجتمعاً يعاني من الاستقطاب الاجتماعي. فبمجرد ان يدير الشاب مفتاح التلفاز، فإنه يجد الشاب نفسه أمام نقيضين: إما مواعظ وإرشادات رجال الدين على مختلف أنواعها، أو رقصات ومقاطع الفيديو كليب الفاضحة. ومن الصعب عليه العيش وسط هذه الأجواء المتناقضة بكل ما لهذه الكلمة من معنى. ومن الملفت في دراسة «ديار» حول «الممارسات الثقافية لدى الشباب الفلسطيني» وجود فجوة متناقضة في إجابات الشباب حول محور الدين. فقد تبين أن الشباب على نقيضين: إما يؤيدون الدين بشكل قطعي أو يعارضونه تماماً. إلّا أن ما أجمع عليه هؤلاء الشباب هو عدم ممانعتهم لعبادة العجل الذهبي أو يعرف «بالاستهلاك» في أيامنا هذه. ومن الطريف أن من أكثر النشاطات التي دفعت بالشباب إلى «دار الندوة» حتى الآن كان الفيلم المصري «عمر وسلمى» الذي شارك في بطولته الفنان المصري تامر حسني. حيث كان هذا الفيلم هو الأول من نوعه بكونه يجذب قرابة ٢٢٠٠ شاب وشابة. أثار ذلك الحدث فضولي كونه نجح في استقطاب كافة هؤلاء الشباب، حيث أغلقت البلدة القديمة لاستيعاب الحشد الغفير الذي توافد لمشاهدة الفيلم، وسرعان ما تيقنت أنه يعبر عن مقومات المجتمع العربي الاستهلاكي الحديث. فهو يعرض شباباً يمتلكون سيارات عصرية، وأجهزة خليوية، وأجهزة الآي باد، ويعيشون علاقات غرامية مفتوحة ذكوراً وإناثاً ، وغير ذلك من أحلام اليقظة بعيدة المنال لدى الشباب العربي: فالفيلم يستحضر وعوداً قائمة على الأوهام.

٤. يعاني ٣٥٪ من هذا الجيل الذي «ولد في الصحراء» من تحدي البطالة. فقد ترعرع وهو يشاهد قنوات التلفاز الفضائية ذات الصحون المركبة فوق أسطح المنازل، والتي تبث ما يزيد عن ١٠٠٠ قناة. إنه جيل يمضي معدل ثلاث ساعات يوميا على برنامج الفيسبوك، حيث بات يستهل صباحه بشعائر زيارة الصفحة الإلكترونية ، ويختتم مساءه بطقوس ومراسم «فيسبوكية». وبالتالي، أخذ يتعامل مع مواقع التواصل الاجتماعي وكأنها في مقام الفرائض الدينية اليومية التي عليه أن يؤديها بانتظام. ومن عواقب ذلك أن ما يشاهده الشباب عبر ما يزيد عن ١٠٠٠ قناة فضائية وعبر مواقع التواصل الاجتماعي يزيد من سقف تطلعاتهم ورغباتهم وشهواتهم: فمع إدراكهم للمغريات والإمكانيات اللامحدودة، تزيد الرغبة لديهم بإمكانية تحصيلها، من جهة، وبرغبتهم للهجرة إلى الفرص الأوفر حظاً ويتم ذلك إما عنكبوتياً أو فعلياً. وإذا عرفنا أن القارة الاوروبية بحاجة الى ٢٥٠ مليون يد عاملة وعقول عالمة سيتضح أن الشرق الأوسط ومسيحييه تحديدا سيشكلون الخزان البشري الأوفر.

٥. وبالنسبة لهذا الجيل الذي «ولد في الصحراء»، كانت الطريق إلى الأرض الموعودة شبه مستحيلة وغير ممكنة إلا من الناحية الافتراضية فقط. وترسخ لدى هذا الجيل الشعور بأنه ربما كُتب عليه المكوث والموت في الصحراء، ومع تفاقم أشواك الصحراء الخانقة، وارتفاع الحر المستعر، أخذت الأمور بالغليان، وظهرت بوادر ثورة هادئة بين الشعوب الصامتة القانطة، خاصة مع تفاقم الشعور بالإحباط بين

الشباب والعجز عن إدراك الذات والشعور بالسعادة. وكل ما كان ينقصها هو الاشتعال، الأمر الذي حدا برجل في تونس أن يفعلها. وسرعان ما أخذت بقاع مختلفة من الشرق الأوسط بالحراك، سخطاً عما جرى. ولقد حل إعصار تسونامي في العالم العربي، بدءاً من تونس، وانتقالاً إلى مصر وليبيا واليمن وسوريا والبحرين والأردن والمغرب، وربما أقطار أخرى أيضاً، باستثناء فلسطين هذه المرة،التي نأت بنفسها- وللمرة الأولى في تاريخنا المعاصر- عن تصدر الأخبار العاجلة عبر قنوات التلفزة العالمية ، وأصبح بإمكاننا الجلوس لمتابعة ما يستعر من ثورات في أوطاننا العربية، مثلما فعل العالم العربي بنا من قبل . لقد بات بإمكاننا التقاط أنفاسنا في هذا المشوار المحفوف بالتحديات، ومن المتوقع أن تترك هذه التحولات التي ألمّت بالعالم العربي آثارها على فلسطين، ويمكن حالياً تلمّس هذه الآثار من خلال قيام حركتي فتح وحماس بمراجعة حساباتهما، والتريث قليلاً لتستقر أحداث الثورات قبل اتخاذهما لموقف حازم وثابت.

٦. نواكب حالياً عصراً جديداً يتبلور في الشرق الأوسط، عصراً سيجعل المنطقة مختلفة عما كانت عليه من قبل، ومع ذلك، ما زالت الشعوب العربية وبنيتها التحتية على ما هي عليه. وللمرة الأولى منذ أربعين عاماً، تلوح في المنطقة آمال جديدة على منوال ما عبّر عنه أوباما في حملته: «أجل نستطيع». نجد الشباب العربي اليوم يعبر عن الفكرة نفسها- هذا هو الأمل الواعد- غير أن الوهم الذي يعترضنا هو أن المطالب لا تُنال بالتمني، لكن تؤخذ الدنيا غلابا، ومن المؤسف مثلاً متابعة كيف ذهبت وعود أوباما في مهب الريح. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل الشباب في العالم العربي مستعد لخوض عملية نضال طويلة وشائكة؟.

بات الشباب يخرجون إلى الشوارع بغض النظر عن انتماءاتهم وتوجهاتهم السياسية، الأمر الذي يستحضر في أذهاننا مشاهد ثورات الستينيات في أوروبا. غير أن الوهم الذي يعترضهم هو: أنه بدون الجهاز العسكري الداعم أو المعارضة المسلحة، لم يكن أي من النجاحات ممكناً. لقد رأينا القوات العسكرية في مصر تتصرف بطريقة بدت محايدة نسبياً، ولكنها راحت تخدم التغيير. كذلك أسهم إضراب الجهاز العسكري في غرب ليبيا في خدمة عجلة التغيير، وما زال الجهاز العسكري في سوريا واليمن اليوم يقف داعما للحكام.

هناك بوادر ووعود بقيام أحزاب سياسية جديدة في عالمنا العربي، وإن المتتبع لمسيرة الإنتخابات في تونس، والمنافسة بين مختلف الأحزاب على المقاعد البرلمانية، يدرك أن مثل هذا الوعد يبعث على الطمأنينه، وهذا ما كنا نحتاج إليه ونسعى لتحقيقه: كتعدد للأحزاب، وإجراء انتخابات نزيهة، والسماح للإسلاميين المعارضين بدخول المعترك السياسي، غير أن البوصلة الإنتخابية تشير إلى أن الإسلاميين هم الأكثر تنظيماً حتى الآن. وليس السؤال الأهم والحتمي المطروح في الشرق الأوسط في المرحلة الراهنة هو: ما إذا كنا نتجه نحو حاكمية إسلامية، وإنما إلى أي نوع من الحكم الإسلامي نتجه؟.

فبعد ثلاثة أيام فقط من وفاة العقيد القذافي في ليبيا، أعلنت القيادة الجديدة أن أحكام الشريعة الإسلامية ستصبح المصدر الأساسي للتشريع، معبرة عن استبعادها لمصادر أخرى قد لا تنسجم مع الشريعة الإسلامية. أما في تونس، فإن حزب النهضة، بزعامة راشد الغنوشي، قد تمكن من تحقيق الفوز الساحق في الإنتخابات، وجنى أكثر من ٤٠٪ من الأصوات. وبحسب تعبير سمية الغنوشي (ابنة راشد الغنوشي) في مقابلة تمت معها قبيل صدور النتائج قالت: «نحن أكثر حزب إسلامي تقدمي في المنطقة» وهنالك ضرورة «لقبول أحدنا الآخر، وقبول التعددية، وقبول التنوع، ومحاولة العمل معاً، وهذا هو الدرس الذي ستمنحه النهضة إلى الحركات السياسية الإسلامية الأخرى». أما الحزب الديمقراطي التقدمي فقد أخفق في اكتساح الأصوات، وحصل حزبان آخران على غالبية الأصوات: «المؤتمر من أجل الجمهورية» بقيادة منصف المرزوقي، و «التكتل الديمقراطي من أجل العمل والحريات».

أما في مصر فقد أفرزت الإنتخابات أكثرية الثلثين لحزبين إسلاميين بأجندتين مختلفتين هم: حزب الحرية والعدالة التابع للإخوان المسلمين وحزب النور التابع للسلفيين.

ومرة أخرى، لا يتمثل السؤال فيما إذا كنا مقبلين على عصر إسلامي، وإنما إلى أي نوع من العصر الإسلامي نحن مقبلون، وأي نموذج إسلامي سوف يطبق. وعلى الأغلب فإننا سنشهد تنافساً بين عدة نماذج حول الصيغة الأنسب والأكثر قابلية للنجاح والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف ستتعامل هذه التيارات الإسلامية مع المسيحيين وهل سيستطيع المسيحيون التاقلم مع هذه التيارات.

٧. قد يبدو للوهلة الأولى أن الشرق الأوسط سيلحظ تغيراً جذرياً، ومع ذلك، فإن تحقيق التغيير على أرض الواقع ما زال بعيد المنال، كما يتضح في الحالة المصرية، ومن الملفت للانتباه أن هذا الإعصار يجتاح العالم العربي دون أن يؤثر على دولة قطر، المنهمكة في تأجيج الثورات العربية. ولا يبدو أن هذه الثورات تقض مضاجع المملكة العربية السعودية (تلك الدولة التي قد تكون بحاجة إلى بعض تغيير)، وماذا بالنسبة لإيران؟ إن هذه الجهات الثلاثة هي لاعب أساسي في الشرق الأوسط، وأن الواقع الذي يحصل هو أن الثورات العربية قد لا تؤثر على تلك الدول التي قد تكون بأمس الحاجة اليها. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا؟

يبدو أن نوعا من التحالف والإستقطاب قد راح يتبلور بين دول تملك النفط وتحكمها أسر حاكمة ومتنفذة من جهة، وتلك التي تعيش الثورات ولكنها تعاني من شح المصادر من جهة أخرى، أو بين دول قادرة على الاستجابة لحاجات الناس الاستهلاكية ولكن ليست الحقوقية ، وبين أولئك الذين قد يتمكنون من الاستجابة لحقوق الناس ولكن ليس لحاجاتهم. إن هذا الوضع يثير القلق دون شك.

تلوح في الأفق إمكانية قيام نوع جديد من الحركات الإسلامية الجديدة المحافظة (نيو كونزرفاتف)، نوع يميل إلى القيم الدينية الإسلامية المحافظة، وفي نفس الوقت إلى

النزعة الإستهلاكية، ويبدو أنه ينحو منحى اقتصادياً ليبرالياً جديداً، ويستطيع إلى حد ما إرضاء بعض «حاجات» الناس في الشرق الأوسط، الأمر الذي قد يخدم المصالح الغربية بسوق استهلاكي في منطقة يقطنها قرابة الـ ٣٥٠ مليون عربي.

٨. إضافة إلى ذلك، يخيل للمرء أن منطقتنا أمام سايكس بيكو جديد اذ يتربص بنا خطر تحول الشرق الأوسط إلى دويلات، على غرار ما حدث في البلقان: فقد تم تقسيم السودان إلى دولتين، وقد يتم تحويل العراق إلى ثلاث دويلات، ويستمر انقسام لبنان إلى تيارين، وتعاني فلسطين من نفس المعضلة (الضفة الغربية مقابل قطاع غزة). ولا ندري بعد، شكل التقسيم الذي قد يحل بسوريا وليبيا واليمن. ومن المحتمل أيضاً أن تتجه المنطقة نحو المزيد من الانقسام بين الشيعة والسنة. وقد يدفع مثل هذا السيناريو إلى إعادة عسكرة المنطقة وغزو مواردها لصالح تجار الأسلحة وملوك الحرب. من هنا، نواكب احتمال تحول منطقة الشرق الأوسط برمته إلى حالة التفتت والشرذمة التي تعيد تكريس الهيمنة الغربية والتركية والخليجية من جهة والسيطرة الإسرائيلية من جهة أخرى.

نحو لاهوت «شأن عام» مسيحي شرق أوسطي

من الصعوبة بمكان التنبؤ بمصائر الأمور، «فالثورات العربية» ما زالت في بداياتها والضباب لم ينقشع عنها بعد لنتمكن من تحليله تحليلاً علمياً، فالثورات كالروايات لا تفهم إلا من خواتمها. لذلك ارتأينا اليوم أن نرسم ملامح لاهوت مسيحي للزمن الماضر، لاهوت مسكوني ومجتمعي يعني بالشأن العام، لا يفعل ذلك إرضاء لأحد أو خوفاً من أحد، ولا يطوره على عجاله وكرد فعل على ما يحدث، بل لاهوت يعبر عن أصالة في الهوية الإنجيلية وانتماء شرق أوسطي، وتعبير صادق عن الشهادة المسيحية.

١. رؤية موحدة:

منذ العنصرة رأى المسيحيون في رسالتهم رسالة جامعة وموحدة، وفي القرن التاسع عشر طور المسيحيون إطاراً عربياً جامعاً للجغرافيا وللتاريخ، إطاراً يتعدى الأطر الطائفية والقطرية، وإن ما ينقص الثورات العربية اليوم ومعارضوها في الوقت ذاته هو رؤية موحدة لهذه المنطقة، والسؤال هل بقي عند مسيحيي الشرق الأوسط الحاليين النفس والبصيرة اللازمة لتطوير مثل هذه الرؤية، وإن الشعب بدون هذه الرؤيا سيجمح كحصان أهوج.

٢. حرية:

حرية الإنسان من العبودية بكل أشكالها هي محور الكتاب المقدس، وحرية المسيحيين من الشريعة هي جوهر الإيمان الإنجيلي، وحرية الإنسان الشرق أوسطي كانت منتهكة في ظل الحكومات السابقة، وما زالت الآن في خطر داهم في خضمّ الثورات والتقلبات. فالحرية

ستبقى موضوعاً رئيسياً في الفترة القادمة. والسؤال الذي يطرح نفسه هل سيستطيع المسيحيون من أن يعيدوا اكتشاف رسالتهم هذه وطرحها لتصير موضوعاً للشأن العام.

٣. مساواة:

لكي تنجح الثورة، نحتاج للاحتكام إلى نمط جديد من التشريع واعتماد دساتير حديثة. فحينما تمكن موسى من التخلص من فرعون مصر وعبر البحر الأحمر ، فما الذي جاء مباشرة بعد العبور؟ إنه القانون، والوصايا العشرة. كان هناك حاجة لدستور جديد، وعاش الجميع تحت حكم القانون، بما في ذلك موسى. لذلك، لم يتمكن موسى من دخول أرض الميعاد، لأن القانون كان ينطبق عليه أيضاً. هذا ما نسميه اليوم بالمساواة أمام القانون والمحاسبة.

٤. التعددية:

لكي تنجح الثورة، على المنطقة الإنتقال من نظام الحزب الواحد،الذي كان المعيار السائد في العالم العربي، إلى نظام تعدد الأحزاب بمشاركة الإسلاميين أيضاً، ويجب التعامل مع بعض الأسئلة المصيرية، ذات العلاقة بين الدين والدولة. وبغض النظر عن الحلول أو النماذج المتبعة، فإن الملاذ الوحيد هو مجتمع مدني قائم على المواطنة يسانده الدين في ذلك. وفي هذا السياق، يتساءل البعض لماذا كانت الثورة في مصر سلمية مقارنة بليبيا؟ وتكمن الإجابة هنا في غياب مجتمع مدني نشط في ليبيا على خلاف مصر. كذلك إذا تساءلنا عن سبب كون حزب النهضة الإسلامي في تونس يحمل توجهات تقدمية أكثر من نظيره من الأحزاب في ليبيا، لأدركنا أن السر يكمن في المجتمع المدني. وإن دل ذلك على شيء، فإنه يدل على أن العمل الذي حققته مختلف مؤسسات المجتمع المدني خلال السنوات العشرين الماضية كان هاماً، حتى لو لم يكن ملموساً في ذلك الوقت. كذلك تعد منظومة المواطنة ضرورية، لأنها تسلط الضوء على الوحدة مع أخذ التعدديات الموجودة في منطقة الشرق الأوسط بعين الاعتبار، بما في ذلك الانتماءات الدينية والإثنية والوطنية...

٥. حل القضية الرئيسية:

لكي تنجح الثورة، ينبغي على المجتمع الدولي حل القضية الفلسطينية، فبدون حل هذه المسألة، من المستبعد إمكانية التركيز على تحقيق التنمية في المنطقة. ولا نستطيع أن نصبّ جهودنا على التنمية، أو التركيز على الاقتصاد، أو النظر إلى المستقبل ما لم يتم إيجاد حل لهذه القضية للمرة الأولى والأخيرة. عدا عن ذلك، سيبقى هذا الصراع قضية عالقة ستعيد المنطقة بأسرها إلى الوراء.

٦. تنمية الموارد البشرية:

حتى يتم جني ثمار الثورة، عليها تلبية توقعات قطاع الشباب. فما هي توقعاتهم؟ إنهم يحتاجون إلى التعليم، خاصة مع واقع نسبة الأمية الذي يصل إلى ٣٥,٦٪ في

العالم العربي (مقارنة بـ ١٨٪ عالمياً). ومن الضروري أيضاً تأمين وظائف في منطقة تحتل أدنى نسبة توظيف في العالم، حيث تكمن الحاجة إلى تأمين ما يزيد عن ٥٠ مليون وظيفة جديدة خلال السنوات العشرة القادمة. فعلى عاتق من تقع تلك المسئولية؟ فقطاع الشباب يريد الحصول على وظائف، ويتطلع إلى إمكانية التحرك بحرية، والتعبير عن النفس دون الخوف من رقابة أجهزة الدولة، إنهم يريدون الحياة والعيش بكرامة، ولا يمكن تحقيق ذلك دون رؤية شاملة للمنطقة ككل، ولكل دولة على حدة، وعلى شعوب الشرق الأوسط تحمل مسؤولية بناء مستقبلهم معاً.

٧. إيمان فاعل:

هذا هو الاتجاه إذن. هذه هي القضايا التي ينبغي علينا معالجتها لكي نحقق ثورة فعلية بعيداً عن الأوهام. ويجدر التنويه إلى أننا جميعاً فاعلون ولا ينبغي لأحد أن يقف متفرجاً. إن الشعوب العربية عامل هام في تحقيق أهداف الثورة، وقد أثبتت ذلك، وإن حكومات الشرق الأوسط هي أيضاً عامل في هذا المشهد، وينطبق الأمر أيضاً على الولايات المتحدة، وأوروبا، وتركيا، وإيران، وإسرائيل. ومع ذلك، يلاحظ تضارب بين القيم التي يدعي هؤلاء الفاعلون أنهم يؤمنون بها كالديمقراطية، وحقوق الإنسان، والتنمية من جهة، والمصالح الاقتصادية والسياسات الفعلية على أرض الواقع ، كالنفط وتجارة الأسلحة والأسواق من جهة أخرى. إن مصالح الدول الغربية في النفط ودعمهم للأنظمة القمعية أثناء تربّعها على العرش على مدار عقود، وخذلانهم لهذه الزعامات بشكل مفاجئ في اللحظة التي أخذ فيها نجمها يخبو ويتلاشى، هي جميعها مؤشرات على أن سياسات النفط والأسلحة والأسواق لا تأبه بالديمقراطية أو حقوق الإنسان أو بالوجود المسيحي ولا تعيرها اهتماماً. إن هذه المتغيرات السياسية تجعل من الصعوبة بمكان إحراز تقدم في المنطقة، وتقودنا للاستنتاج بأننا نجد أنفسنا بين مطرقة الوهم وسندان الوعد عندما نتناول هذه الثورات. والخيار الوحيد المطروح أمامنا هو أن نحمل شعلة التغيير المنهج السلمي والتراكمي، ونكمل المشوار بشكل أكثر فاعلية نحو إحداث عملية تغيير جوهرية تنطلق من الداخل.

٨. مساحات للرجاء:

من عاش الثورات العربية والتاريخ المعاصر لا بد وأن رأى كيف انقلبت آمال هذه الشعوب آلاماً مرة تلو الأخرى، وأن الرؤية المنشودة لم تكن سوى سراباً.

في خضم حالة الإحباط هذه لا بد للمسيحيين أن يخلقوا مساحات كي ينمو الرجاء فيها، ليس كشعارات رنانة، بل كمساحات فعلية وتجليات إنسانية، وعلامة حضارية. فالرجاء لن يكون يوماً في الأحزاب ولا في الثورات ولا في المتغيرات بل في الروح الذي يجدد الرجاء فينا: « مكتئبين في كل شيء لكن غير متضايقين، متحيرين لكن غير يائسين، مضطهدين لكن غير متروكين، مطروحين أرضاً لكن غير هالكين، حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع، لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا.»

فهرس الهوامش:

الفصل الأول

الحالة السياسية والكنسية في شبه الجزيرة العربية

(١) هكذا سماها رودي باريت (Rudi Paret)، وهي تسمية حق، في كتابه «محمد والقرآن»، دار النشر شتوتغارت وبرلين وكولون وماين ١٩٩٦/٢، صفحة ٩.

(٢) المزيد على نلك في كتاب (Graf) الجزء الأول، صفحة ١٥ والخ. وعرفان شهيد «غسان»، في موسوعة الإسلام، الطبعة الجديدة الثانية، صفحة ١٠٢٠ الخ.... و (J.S. Trimingham) صفحة ١٧٨-١٨٨.

(٣) لمزيد على هذا في كتاب (Graf) الجزء الأول، صفحة ١٨ الخ... وعرفان شهيد، الموضوع «اللخميون» الطبعة الجديدة، EI-V صفحة ٦٣٢ - ٦٣٤.

(٤) ليس هناك إلا مصادر قليلة يعتمد بها تروي أخبار أبرهة. ووفقاً ل Procopius احتل الملك الأثيوبي Hellesthea ios جنوب العربية في الربع الثاني من القرن السادس، وقتل الملك اليمني ونصب مكانه اثوبياً يدعى Esimphaios، الذي لم يبق في المنصب مدة طويلة لأن الأثيوبيين الذين كانوا قد استوطنوا جنوب العربية ثاروا عليه ونجحوا في عزله ونصبوا أبرهة على العرش بدلاً منه. أما ماضيه فليس واضحاً كل الوضوح، وعلى الأرجح كان عبد أحد التجار البيزنطيين من Adulis. لكنه اشتهر بترميم سد مأرب وكان ذلك في عام ٦٥٧. وتعلل المعسادر الإسلامية هجومه على مكة بأنه أراد ان يهدم الكعبة حتى يحل الكنيسة التي بناها في صنعاء محل الكعبة محجاً يزوره الحجاج. ومزيداً على هذا راجع A.F.L. Beeston، الموضوع «أبرهة»، الطبعة الجديدة I- El صفحة ١٠٢ الخ.

و L.I.Conrad، الموضوع Abraha and Muhammad: some observations apropos of ehronology and literaty topoi in the earty Arabic historical tradition" نشر المقال في BSOAS عام ١٩٨١ صفحه ٢٢٥ - ٢٤٠.

(٥) قابل: فيليب حتي، تاريخ سوريا والمشتملة على لبنان وفلسطين، نشر في London and New York ٢/١٩٥٧. والمؤلف ذاته: الشرق الأدنى في التاريخ، تاريخ ٥٠٠٠ عام، نشر في Princeton, New York, Toronto and London عام ١٩٦١ و George Ostrogorsky: تاريخ الدولة البيزنطية، صدر في Munchen

(٦) راجع M.J. Kister في في «مكة وقبائل العربية» والمؤلف ذاته في «المجتمع والدين من الجاهلية الى الإسلام» نشر في Vermont / Variorum ١٩٩٠ صفحة ٣٧.

(٧) T. Noeldeke الجزء الأول صفحة ٧٤ الخ.

(٨) قابل ايضا Philippe Gignoux في "Le doctrines eschatotogiques de Narsai" صدر في L'OrientSyrien(١١) ١٩٦٦, Vernon, صفحة ٣٢١-٣٥٢

و ٣٦١-٤٨٨ وكذلك الجزء (١٢) عام ١٩٦٧، صفحة ٢٣-٥٤.

(٩) تقل إلينا التاريخ الإسلامي إحدى هذه العظات المسيحية العربية وترجع الى قس بن ساعدة، ومع ان ما نعرفه عن هذه الشخصية يشوبه الغموض إلا ان أحدا لا يشك في حقيقة كونه التاريخي. (سيأتي ذكره مرة ثانية في آخر هذا المقال).

(١٠) للمزيد على هذا Th. Noeldeke، الجزء ١، صفحة ١٤٩ الخ.

(١١) مزيدا على هذا B. Holmberg الموضوع "Nasturiyyum" الطبعة الجديدة EI-VII صفحة ١٠٣٠-١٠٣٣، و W.Hage «التأثير» صفحة ١٢ الخ. «الكنيسة الحالة»، صفحة ١٠ الخ. و Graf في كتابه التاريخ "Geschichte" صفحة ٧٠ الخ. و J.S. Trimingham صفحة ١٥٩ الخ.

(١٢) راجع B. Heiler، «الكنائس الشرقية» اصدار Leiden and Koin ١٩٦٤، صفحة ٤٢١.

(١٣) F.Riliet الموضوع "Syriac" في الموسوعة "of the early cgurch" الجزء II صفحة ٨٠٩ الخ.

(١٤) راجع ايضا S.J. Voicu «اللغة الآرمنية وأدبها» في: Encyclopedia of early, Church I" ١٩٩٢, Oxford University Press, N.York، صفحة ٥٧٩ الخ.

(١٥) كان فى الدولة الفارسية عدد ضتل من الطوائف السورية الوحديطبيعية والتي لم تنضم إلى الكنيسة النسطورية. وكان يشرف على هذه الطوائف مطرانيتنان مستقلتان بعضهما عن بعض، وكان مركز أحداهما دير ماتاي (متاي) والأخرى مدينة تغريت على دجلة. وكانت علاقة هذه الطوائف بالكنيسة الأرمنية علاقة حسنة ودامت حقبة من الزمن إذ كانت هذه الأخيرة أيضاً ضمن الدولة الفارسية. ولم يتم اتحاد هذه الطوائف بالكنيسة اليعقوبية السورية إلا سنة ٦٢٩ بعد أن احتل هيراكلايوس الدولة الفارسية. المزيد على ذلك راجع Hags «الحالة الكنسية»، صفحة ١٣ الخ.

(١٦) نقلت الينا التقاليد الإسلامية قصة التقاء محمد أحد الرهبان واسمه بحيرة، وكان ذلك في بوصرا في شرقى الأردن، وجرى اللقاء عندما كان

محمد بين التاسعة والثالثة عشر من عمره عندما كان في صحبة عمه أبي طالب أو أبي بكر أثناء رحلة الى سورية. وفي هذه المقابلة تنبأ الراهب عن دعوة محمد وحذره من اليهود والبيزنطيين. إن اقتران هذه الرواية بهذه الخلفية يدعونا الى التحفظ والروية. لأن علم الدفاع عن العقيدة الإسلامية قصد بهذه القصة البرهان الذي يستدل به على ان دعوة محمد وان لم تتنبأ بها التوراة فإن احد الثقة المسيحيين المعتمد عليهم قد توقعها، ومن ناحية أخرى اتخذها اللاهوت الجدلي المسيحي دلالة على ان محمداً استقى تعاليمه من المسيحيين اللهم مسيحيين هراطقة. وكلمة «بحيره» ومعناها بالسريانية المختار او المصطفى، كان صاحبها اما أرياني أو نسطوري او وحديطبيعي، ويتوقف ذلك على وجهات النظر المختلفة. راجع ايضاً A.Abel، لموضوع "Bahira"، الطبعة الجديدة ١، عام ١٩٦٠، وصفحة ٩٢٢ الخ.

(١٧) ان جميع النصوص القرآنية التي تتكلم عن الرهبنة هي مدنية. ورد ذكر الرهبنة مرة واحدة فقط (صورة الحديد ٢٧:٥٧): «ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم واتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعاياتها فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون». إنما هناك جدل كبير حول تفسير هذه الآية. وورد ذكر الرهبان مرتين: مرة على نحو سلبى سورة ٩:(٣١-٣٤): «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ... يا أيها النين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس.... ومرة أخرى على نحو ايجابي (سورة ٥ :٨٧) (آية ٧٧ يقول) «قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) والآية ٧٨ يقول: « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». للمزيد على ذلك A.J.Wensink الموضوع «رهبانية» EI-VII، صفحة ٣٩٦ الخ وذات المؤلف، الموضوع «الراهب»، EI-VII، صفحة ٣٩٧.

(١٨) مزيد على ذلك MNaldini الموضوع «مصر» في EECI صفحة ٣٦٤، و I.H.Dalmais الموضوع «مصر»(II. Litugy) في Ebenda، و T.Orlandi الموضوع "Coptic" في EECI صفحة ١٩٩ الخ.

(١٩) للمزيد على ذلك F. Buhl الموضوع «ماريا» في El New Ed. VI، ١٩٩١، صفحة ٥٧٥، و A.S.Atiya الموضوع "Kipt" في NewEd. V، صفحة ٩٠-٩٥

(٢٠) يروي المؤرخ الاسلامي ابن اسحق ان تجارا قبطيا قد بنى سطح الكعبة عام ٦٠٠. راجع H. Busse، صفحة ١٢.

(٢١) هذا ما كتبه J.S.Trimingham، صفحة ٢٨٩.

(٢٢) للمزيد على ذلك Rainer.O الموضوع "Ethiopia-Ethiopic" صدر في EECI، صفحة ٢٨٩.

(٢٣) بما يتعلق بالآتي راجع: E.Van Dozel الموضوع «النجاشي» في .EJ New Ed VII صفحة ٨٦٢ الخ. و W.Montgomery Watt الموضوع "Habash-Habasha" في.El New Ed III، ١٩٧١ صفحة١١ .

(٢٤) W.Arafat الموضوع 'بلال بن رباح» HI New Ed. I، صفحة ١٢١٥.

(٢٥) قابل W.Raven في "some earfy Islamic texts on the Negus of Abyssinia» صدر في JSS، ١٩٨٨، صفحة ١٩٧ الخ.

(٢٦) التفاصيل عن هذا الموضوع J.SpencerTrimingham في موضوعه: hristianity among€ Times" Longman, London and New York, in Librarie du the Arabs in Liban، صدر في لندن ١٩٧٩. و Caspar Detlef Gustav Muller الموضوع «الكنيسة والتبشير بين العرب قبل الاسلام» مجموعة محاضرات وكتابات مبسطة من حقل اللاهوت وتاريخ الكنيسة»، صدر في Tubingen، ١٩٦٧.

(٢٧) المراجع: انظر رقم ٢، من التعاليق والشرح.

(٢٨) يجب عدم فهم كلمة «البطريرك» هنا بمعناها المتعارف عليه في الكنيسة، إنما أعطى القيصر البيزنطي يوسقيان (عام ٥٢٩) لقب Patricos للحارث، ويكنى بهذا اللقب في الأدب العربي المبكر عن البطريرك. راجع J.S.Trimingham، منحة ١٨٠.

(٢٩) راجع: عرفان شديد «Byzantino-Arabica» اجتماع الرملة سنة ٥٢٤ سر في مجلة الدراسات الشرق أوسطية، رقم ٢٣، عم ١٩٦٤، صفحة ١١٥-١٣١.

(٣٠) يجدر هنا ذكر النابغة الذبياني، أبو داود الإيادي، أوس بن حجّار، جرير ابن عبد المسيح، وميمون ابن قيس المعروف بالأعشى. راجع أيضا: J.S.Trimmgham، صفحة ٢٠١ في G.Anawati andScheicko ....

(٣١) أحد المراجع J.S.Trimmgham، صفحة ٢٢٣.

(٣٢) للمزيد على ذلك: عرفان شديد El New Ed. VII، صفحة ٨٧١ الخ، و J.S.Trinungham، صفحة ٢٨٧-٣٠٧.

(٣٣) ليس لأسطورة المؤرخ الآرياني Philostrogius أية دلالة تاريخية، وهذه الأسطورة تتكلم عن إهداء السبأبين على يد ثيوفيلوس مبعوث القيصر البيزنطي يوستنيان. للمزيد على ذلك J.S.Triiningham، صفحة ٢٩٢ الخ.

(٣٤) هذا ما رواه المؤرخ الآرياني Philostrogius (٣٦٠-٤٣٠) وكتب قائلا: «أرسل قسطانتيوس سفراء إلى أولئك الذين كانوا يدعون سابقاً سبأبين، ويعرفون الآن باسم الحومريين (Homeritae)، وهم قبيلة تحدرت من إبراهيم من امرأته كاتورة. أما المنطقة التي يسكنوها فيقول أن اليونانيين يسمونها العربية

الكبيرة (Arabia Magnus) والعربية السعيدة (Arabia Felix)، وتمتد إلى ابعد حدود الاوقيانوس، وعاصمتها سبأ...» نقله J.S.Triimngham، صفحة ٢٩٢ الخ.

(٣٥) راجع J.S.Trimingham، صفحة ٢٩٢ الخ.

(٣٦) راجع الأعشى (+٦٢٩) في ديوانه، وراجع أيضا J.S.Trimingham، صفحة ٣٠٥.

(٣٧) للنقاش، راجع Th.Noeldeke I، صفحة ٩٧ الخ.

(٣٨) نقله J.S.Trimingham، صفحة ٣٠٦.

(٣٩) هذه الرواية موثوق بها، رواها A.Baumstark في «مشكة الكتابات الكنسية المسيحية باللغة العربية قبل الإسلام» صدر في مجلة Islamic، سنة ١٩٣١، صفحة ٥٦٢-٥٧٥.

(٤٠) راجع Ebenda، صفحة ٥٦٥.

(٤١) من بين الذين يجدر ذكرهم هنا:

لويس شيخو،»النصرانية وأدبها في عرب الجاهلية صدر في بيروت ١٩٢٣.

وعبد المسيح المقدسي، «نقل الكتب المقدسة إلى العربية قبل الإسلام»، صدر في المشرق عدد ٣١ عام ١٩٣٣، صفحة ١-١٢.

وخليل سمير،»خصائص التراث العربي المسيحي القديم «صدر في Thel./٢ Review V، سنة ١٩٨٢، صفحة ١٥٦-١٩٠. وهناك غيرها من المراجع.

إن بعض ما ورد في نظرية شيخو مبالغ فيه، مما يدعو إلى التحفظ في معالجتها، استنادا إلى نشرات عديدة تدل على ذلك، ونشير هنا إلى أهمها.

إبراهيم الجاسقي،»انتقادات متفرقة لأبعاد كتب الأب شيخو» صدر في الضياء (٢) ١٨٨٩ /٩٠، صفحة ٢١٣ الخ، و٢٧٠ الخ، و٣٦٨-٢٧٢، و(٣) ١٨٩٠ /٩٠، صفحة ١٥٠ الخ، و ٢٠٩- ٢١٢، و ٦٢٧ الخ، و٦٨٤-٦٨٧.

وكيل حكيم: «الأب لويس شيخو وصور النصرانية في الجاهلية صدر في المشرق عدد ٦٤، عام ١٩٧٠، صفحة ٢٩٧-٣٢٢.

وأخيراً جورج قنواتي: ...إن أهم مؤيدي هذه المدرسة في عصرنا الحاضر هو عرفان شديد وإن كان بنا افتراضه على التخمين بلا شك، انه يعتقد أن في القرن الرابع كان هناك طقوس عربية بسيطة جداً وترجمات عربية لأهم القراءات التوراتية المعينة للتورجية. ويذهب إلى أبعد من ذلك فيتحدث عن إنشاء كنيسة عربية تابعة للبطريركية الأنطاكية في القرن الرابع. المراجع: عرفان شديد في Rome and the Arabs, A prolegomenon to the study

of Byzantium and the" "Arabs صدر في Washington Dumbarton Oaks
D.C. 1984 Research Library and collection، والمؤلف نفسه في

Byzantium and the Arabs in the 4th Century" Dumbarton Oaks,.
Washington D.C" ١٩٨٤، راجع خصوصاً صفحة ٤٣٥-٤٤٣، و ٥٥٤-٥٥٨،
والمؤلف نفسه في

Byzantium and the Arabs in the 5th Century» Bumbarton Oaks,»
Washington D.C., 1989، مراجعة خصوصاً صفحة ٤٢٢-٤٥٧، و ٥٢٠-٥٢٨.

(٤٢) من الذين دافعوا بشدة عن وجود أدب عربي مسيحي قبل الإسلام W.Rudolph
في «العلاقة» "Abhangigkeit"، T.Andrae» في الأصل "Urspning"، Ahrens
في «أمور مسيحية» "Christliches"، وأيضاً وبنوع خاص A.Baumstajfc
«التبشير الأحدي في القدس قبل العصر البيزنطي» صدر في نشرات
بيزنطية (٣٠) عام ١٩١٩-٢٠، صفحة ٣٥٠-٣٥٩. والمؤلف نفسه «مشكلة
الكتابات الكنسية المسيحية باللغة العربية قبل الإسلام» صدر في
Islamica 4، عام ١٩٣١، صفحة ٥٦٢-٥٧٥. والمؤلف نفسه «ترجمة عربية
قديمة للأناجيل منقولة من الفلسطينية المسيحية» صدر في Semistik 8،
عام١٩٣٢، صفحة ٢٠١-٢٠٩. والمؤلف نفسه من بين ونصوص المحفوظة» أقدم
نص للمزمور ١١٠ (١٠٩) يوناني/عربي، صدر في مجلة Oriens Christianus،
عدد ٣١ عام ١٩٣٤، صفحة ٥٥-٦٦. والمؤلف نفسه «ترجمة الأناجيل بالعربية
من السريانية في فجر الاسلام وترجمة أخرى قبل الإسلام» صدر «Atti: del
XIX Congresso internazionale Delgi Orientalistu»، روما ١٩٣٨، صفحة
٣٨٢-٦٨٤. أما العالم Joshua Blau وهو أحد الباحثين في الساهية وأدبها،
فإنه عبر عن معارضته لنظرية Baumstark، هذه الأخيرة وقال «هل هناك
شيء لا يزال محفوظاً لدينا من ترجمات التوراة التي تعود إلى ما قبل
الإسلام؟» صدر في LeMuseon، عدد ٨٦، عام ١٩٧٣ صفحة ٦٧-٧٢.

(٤٣) راجع J.S.Trimingham الموضوع «المسيحية».

(٤٤) راجع Hage الموضوع «التأثير» "Einfluss".

(٤٥) راجع C.Rabin الموضوع "Arabiyya A. The Arabic Language" ظهر في
El New Ed.، صفحة ٥٦٤. روى المؤرخ الإسلامي الطبري القصة التالية:
بعد أن عقد خالد بن الوليد اتفاقية مع الانبار اتفق انه لاحظ انهم يكتبون
بالعربية بمهارة فائقة فسألهم: «من أنتم؟» فأجابوا: نحن جماعة عربية
تنحدر من إحدى القبائل العربية التي كانت هنا قبلا والتي حط أجدادها
في هذه البلاد على زمن نبوخذ نصر الذي أراد توطين العرب، واستمرت على
العيش منا». ثم استفسر «من علمكم الحروف؟» فاجابوه: تعلمنا الكتابة
من إياد». رواها J.S.Trimingham، صفحة ٢٢٧.

(٤٦) راجع Ebenda

(٤٧) كانت المبادرة في ترجمة الأناجيل من السريانية بالعربية أول ترجمة مبادرة
إسلامية وذلك استنادا إلى التقاليد المنقولة، والتي تقول أن الحاكم المسلم
عمرو ابن سعد ابن أبي وقاس طلب ترجمة عربية من البطريرك الأنطاكي
يوحنا الصدراوي، وبما أن البطريرك لم يكن يعرف العربية فإنه استعان
بالعرب المسيحيين في طي والحيرة (كانوا لخميين)، لكن تلك الترجمة لم
تعد موجودة. أما أقدم ترجمة عربية مما بقيت محفوظة لدينا فهي ترجمة
المزامير، وترجع إلى حوالي القرن التاسع. قابل J.S.Trimingham، صفحة
٢٢٥.

(٤٨) نقلها W.Hage في «تأثير المسيحية الشرقية على الإسلام الناشئ » و
Willi Hofner (Hg) في «الإسلام دين جاء بعد المسيحية»، صدر في دار النشر
Christian Jensen Breklum، عام ١٩٧١. المزيد على قس بن ساعدة -ch. Pel
lat في الموضوع «قسن بن ساعدة» صدر في El New Ed. V، Brill Leiden،
عام ١٩٨٦، صفحة ٥٢٩.

لفصل الرابع

محمود درويش والكتاب المقدس

(١) الأعمال الشعرية الكاملة: ديوان محمود درويش المجلد ١-٢، ديوان «سرير الغريبة» ١٩٩٦ - ١٩٩٧، قصيدة « لم أنتظر أحداً» ص ٦٨٥

(٢) قصيدة تسجيلية : «مديح الظل العالي» ١٩٨٣ ، ص٣٥٠

(٣) ديوان «سرير الغريبة» ١٩٩٦ - ١٩٩٧، قصيدة « لم أنتظر أحداً» ص ٦٨٦

(٤) ديوان ورد أقل ١٩٨٦ قصيدة «أنا يوسف يا أبي» ، ص ٥٠٤

(٥) ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً : قصيدة « أبدُ الصبار» ، ص ٦٠٢

(٦) ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً : قصيدة « نزهة الغرباء» ، ص٦١٠

(٧) ديوان « لماذا تركت الحصان وحيداً» قصيدة «كم مرة ينتهي أمرنا» ص ٦٠٤

(٨) الجدارية ، ١٩٩٩ ، ص٧٤٠

(٩) ديوان «أحد عشر كوكباً « ١٩٩٢ ، قصيدة « خطبة الهندي الأحمر» ص ٥٦٤

(١٠) الجدارية ، ١٩٩٩ ، ص٧٢٩ ، قصيدة تسجيلية : «مديح الظل العالي» ١٩٨٣، ص ٣٥٤

(١١) الجدارية ، ١٩٩٩ ، ص٧٢٩ و ديوان «لماذا تركت الحصان وحيداً : قصيدة « حبر الغُراب» ، ص٦١٢

(١٢) كتاب : «كزهر اللوز أو أبعد» ص ١٤٢

(١٣) ديوان آخر الليل ، ١٩٦٧ : قصيدة : «امرأة من سدوم» ، ص ١٣٩

(١٤) الجدارية ، ١٩٩٩ ، ص ٧٢٦

(١٥) ديوان عاشق من فلسطين ١٩٦٦ : قصيدة :»في انتظار العائدين» ، ص٥٧

(١٦) قصيدة تسجيلية : «مديح الظل العالي» ١٩٨٣ ، ص٣٦٤

(١٧) ديوان عاشق من فلسطين ١٩٦٦ : قصيدة « نشيد» ص٧٦

(١٨) كتاب : «كزهر اللوز أو أبعد» ص١٤٩ ، الجدارية ، ١٩٩٩ ، ص٧٢١

(١٩) ديوان «لماذا تركت الحصان وحيداً « ، قصيدة «أبدَ الصبار» ،ص ٦٠٤

(٢٠) ديوان «ورد أقل» ١٩٨٦ ، نثر بعنوان «الهي لماذا تخليت عني» ، ص٥٠٥

(٢١) الجدارية ، ١٩٩٩ ، ص٧٤١

(٢٢) ديوان آخر الليل ١٩٦٧ : قصيدة: « أغنية ساذجة على الصليب الأحمر» ص ٩٧ ، و ديوان أوراق الزيتون ١٩٦٤ ومنه القصائد التالية: قصيدة :»إلى القاريء» ص٧ ، و قصيدة :» ولاء» ص٧ وقصيدة» عن إنسان» ص٨ ، وقصيدة « عن الصمود» ص٢٢ وقصيدة « رباعيات» ص٣٢

(٢٣) http://www.mahmouddarwish.com/arabic/live.htm

(٢٤) أوراق الزيتون ، ١٩٦٤ ، «عن انسان» ص٨ ، ديوان محمود درويش المجلد ١-٢

(٢٥) قصيدة تسجيلية : «مديح الظل العالي» ١٩٨٣، ص٣٥٣

(٢٦) قصيدة تسجيلية : «مديح الظل العالي» ١٩٨٣، ص٣٥٣

(٢٧) قصيدة تسجيلية : «مديح الظل العالي» ١٩٨٣، ص ٣٥٤

(٢٨) قصيدة تسجيلية : «مديح الظل العالي» ١٩٨٣، ص ٣٧٩

(٢٩) قصيدة تسجيلية : «مديح الظل العالي» ١٩٨٣، ص٣٧٦

(٣٠) قصيدة تسجيلية : «مديح الظل العالي» ١٩٨٣، ص ٣٦٤

(٣١) ديوان «ورد أقل» ١٩٨٦ ، نثر بعنوان «أنا يوسف يا أبي» ، ص٥٠٤

(٣٢) ديوان «ورد أقل» ١٩٨٦ ، نثر بعنوان « الهي لماذا تخليت عني؟» ، ص٥٠٥

(٣٣) ديوان «ورد أقل» ١٩٨٦ ، نثر بعنوان «يطول العشاء الأخير» ، ص ٥٠٤

(٣٤) ديوان «ورد أقل» ١٩٨٦ ، نثر بعنوان: « يحبونني ميتاً»، ص٤٩٥

(٣٥) ديوان «ورد أقل» ١٩٨٦، نثر بعنوان «على هذه الأرض ما يستحق الحياة»ص ٤٨٨

(٣٦) ديوان «لماذا تركت الحصان وحيداً»، قصيدة «حبر الغراب» ،ص ٦١٢

(٣٧) ديوان «لماذا تركت الحصان وحيداً»، قصيدة «فضاء هابيل عود اسماعيل» ، ص ٦١٠

(٣٨) الجدارية ، ١٩٩٩ ، ص ٧٢٢

(٣٩) الجدارية ، ١٩٩٩ ص ٧٣٨ - ص ٧٤١

(٤٠) الجدارية ، ١٩٩٩ ، ص ٧٤١ + ص ٧٤٤

(٤١) الجدارية ، ١٩٩٩ ،ص٧٤٥ - ص ٧٤٦

(٤٢) ديوان «كزهر اللوز أو أبعد» قصيدة « هنالك عرس» ص ٣٩ - ٤٠

(٤٣) ديوان «كزهر اللوز أو أبعد» قصيدة «منفى (٢)» ، ص ١٤٢

(٤٤) ديوان «كزهر اللوز أو أبعد» قصيدة « منفى (٣) « ، ص ١٦٧

(٤٥) ديوان «كزهر اللوز أو أبعد» قصيدة « منفى (٤) « ص ١٩٤ - ص١٩٥

الفصل السادس

مفهوم العدل و المساواة

(١) تكوين ١:١

(٢) تكوين ١ : ٣١

(٣) تكوين ١ : ٢٦ -٢٧

(٤) أعمال الرسل ١٧: ٢٦

(٥) تكوين ٢ : ١٥

(٦) رومية ٨ : ٢٢

(٧) تكوين ٤ : ١-١٦

(٨) تكوين ١١ : ١ - ٩

(٩) لوقا ١٨:٤ -١٩

(١٠) افسس٢: ١٤-٢٢

(١١) أعمال الرسل ٢: ٤٤-٤٦

(١٢) متى ٢٦: ٢٦ - ٢٧

(١٣) غلاطية ٣ : ٢٨

(١٤) راجع قانون الإيمان النيقاوي

(١٥) فيلبي ٤ :٧

(١٦) رؤيا يوحنا اللاهوتى ٢١: ١-٥

(١٧) أشعيا ٢: ٤ - ٥